
أبي اسمه إبراهيم
د. أحمد خيري العمري
المكتبة
؟
!
دار المعرفة للنشر والتوزيع
مدار للنشر والتوزيع

أبي اسمه إبراهيم

د.أحمد خيري العمري





الإهـــــداء

إلى البريق الذي ينطلق

من عيون أولادي، كلما قصصت عليهم

قصة إبراهيم - قبل النوم - آملًا أن يصير ذلك البريق

ضوءًا مشعًا ينير ظلمة الطريق، ويمهد

لاستيقاظٍ من نوم تاريخي .....







المقدمة



أنا لا أحب الحكايات القديمة، ولا أعرف لماذا يحب بعض الناس هذه الحكايات، ويدمنون سماعها وتكرارها، إنما أحب الحكايات التي تقص ما يدور الآن، أو ما سيدور في المستقبل ... وأنا واثق أنكم أنتم أيضًا لا تميلون إلى قصص الماضي، وتحبون قصصًا مثيرة ستدور في المستقبل ...

لكن هناك بعض الاستثناءات؛ هناك قصص قديمة، بل وقديمة جدًّا، لكنها تظل جديدة بل إنك قد تشعر أنك جزء من هذه القصة، وأنك ستصير بطلًا من أبطالها ... وستشعر أيضًا أنها ستدور أيضًا في المستقبل، قد تتغير الزخارف الداخلية (الديكورات) والأثاث المحيط، وأسماء الأبطال، ومواقع الأحداث، لكن (القصة) نفسها ستظل تقريبًا بلا تغيير...

وهذه الحكاية التي سأقصها اليوم، هي من هذا النوع، إنها قديمة جدًّا، ولكن مع ذلك فهي جديدة جدًّا، وقد كانت كذلك دومًا، إنها تتجدد، وكل واحد منا يمكن أن يكون جزءًا منها، ويمكن أن يختار دور البطولة الذي يناسبه ...

وبطل هذه القصة يخصنا بشكل مباشر، ليس لأنه جدنا الأكبر فحسب، ولكن لأنه اكتشف شيئًا مهمًا غيّر من



تاريخ البشرية كلها ...

نسمع كثيرًا أن ابن النفيس اكتشف الدورة الدموية، وأن إديسون اكتشف المصباح الكهربائي، وأن جراهام بل اخترع الهاتف، وهذا بالتأكيد مهم جدًا.

ولكن جدّنا اكتشف شيئًا آخر أهم، ولولا هذا الشيء، لما اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية، ولا إديسوز اخترع المصباح الكهربائي، ولما كان بل اخترع الهاتف، فما هذا الشيء؟.

ستعرفون عندما نعرف الحكاية من أولها.

..الفصل الأول..

كان يا ماكان... الآن!

في مدينة كبيرة وعظيمة، في ذلك الوقت، وقعت هذه الحكاية... إنها مدينة (أور) التي تقع جنوب العراق الآن، قرب مدينة ربما تسمعون اسمها بين الحين والآخر: «الناصرية»، وكانت (أور) في ذلك الوقت تعد من أهم مدن العالم بالضبط كما تعتبر اليوم مدينة: (نيويورك) أو (لندن) أو (باريس) أو (طوكيو)...

كانت (أور) عاصمةَ السومريين، وكانت واحدة من أغنى مدن العالم وأكثرها رفاهية وترفًا وكان الناس يقصدونها من كل مكان، ويزورون معالمها الشهيرة، كما يزور السياح اليوم برج (إيفل) مثلًا في مدينة (باريس)، أو كما يزورون ساعة (بيج بن) في لندن، أو (تمثال الحرية) في نيويورك... كما أنهم كانوا يقصدونها لشراء بضائعها الممتازة التي تعد الأغلى والأجود، بالضبط كما يعدّ الناس اليوم البضائع الفرنسية أو الأمريكية هي الأفضل حتى لو كانت الأغلى... ولو كان أهل ذلك الزمان يعرفون تأشيرة الدخول (الفيزا)، التي نعرفها اليوم، لكانت تأشيرة الدخول إلى (أور) هي الأهم والأصعب تحصيلًا في العالم آنذاك، وكان الناس سيدفعون أموالًا طائلة لمجرد الدخول إليها...

ولو أننا دخلنا مدينة (أور) في ذلك الوقت، للفت أنظارنا من بعيد بناء كبير جدًا، وضخم جدًا، استغرق بناؤه وقتًا طويلًا، أكثر من عشرين عامًا وكان ذلك طبيعيًا مع بساطة معدات البناء وقتها، لم تكن هناك رافعات ضخمة، ولا ماكينات تحمل المواد إلى العلو الشاهق الذي بلغه البناء... كل شيء بإمكانات ذلك الوقت البسيطة، وبأيدي عمال بسطاء...

ولذلك كان هذا البناء الضخم يأخذ أنظار كل زواره...

كان بناءً ضخمًا جدًا كما لو كان منصة لإطلاق الصواريخ، أو ناطحة سحاب عالية، وفي وقت كانت فيه بعض الشعوب لا تزال تعيش في الكهوف، أو في أكواخ صغيرة لا يتجاوز ارتفاعها قامة إنسان متوسط الحجم.

* * * *

كان اسم هذا البناء (الزقورة) وهو لا يزال موجودًا وعاليًا في جنوب العراق، قرب مدينة الناصرية... فلماذا بني هذا البناء أصلًا؟!.

بالتأكيد ليس من أجل أن يأتيه الناس ليتفرجوا عليه، كما يفعلون اليوم...

لكن ذلك كان لهدف آخر...

كانت الزقورة العالية معبدًا ضخمًا يعبد فيه أهل المدينة واحدًا من آلهتهم العنيدة...

كان ذلك إله القمر، وكان يسمونه (نانا).

* * * *

آلهة بالجملة...!

كان أهل أور يعبدون آلهة كثيرة جدًا، وكانت هناك آلهة رئيسية كبيرة جاءت من السماء إلى الأرض، وهي التي صنعت هذا العالم - أو هكذا تصور أهل مدينة أور- بجباله وسهوله وأنهاره وبحاره... وكانت هناك آلهة طيبة، مختصة بالأعمال الخيرية، وأخرى سيئة مختصة بالشر...

وكانت هذه الآلهة تتزاوج فيما بينها، وتنجب آلهة أخرى صغيرة، وكانت تختلف أيضًا في زيجاتها فتطلّق وتتصارع فيما بينها.. بل كان بعضها يقضي على بعضها الآخر أحيانًا...

كان (آن) كبير الآلهة وهو إله الشمس، وكان السومريون يعتقدون أنه صنع العالم كله، وكان هذا الإله يسكن في السماء، لكنه هبط إلى الأرض عند حدوث مشكلاتٍ في السماء، وكانت تصحبه زوجة (آن تو)...

لكن يبدو أن هذا الإله كان مزواجًا، فكبرى بناته، وهي إلـهة الجبال: أمّ الآلهة؛ الإلهة (نين) كانت ابنته من زوجة أخرى غير (آن تو)، وقد تزوجت هي الأخرى عدة مرات، مرة من (أنكي) وأنجبت منه إله البحيرات، وأخرى من (أنليل) !

وكانت (نين) إلهة الطب أيضا وهي المسؤولة عن الشفاء من الأمراض والأوجاع.

كان (أنكي) هو الإله المسؤول عن الحياة والموت، وكان واحدًا من أقوى وأهم الآلهة في الأرض -حسبما يتصور السومريون- وكان هو المسؤول عن صنع الإنسان الأول، والمسؤول عن الخصب والماء...

أما (أنليل) فقد كان ابن (آن) المفضل، ولكن في السماء وليس في الأرض، وكان يجلس دومًا قرب والده كلما صوروا لهم لوحة تجمع عائلة الآلهة هذه وكان (أنليل) إله الزراعة، وكانت علاقته بأخيه (أنكي) سيئة بسبب الغيرة والتنافس بينهما.....

* * * *

وكان هناك الإله (أنشار) إله خاص بالأولاد الذكور فقط، وكانت أخته الإلهة (كيشو)، خاصة بالبنات فقط، وكما يحدث في المدارس بين البنات والصبيان، كانت توجد مشكلات أيضًا بين أنشار وكيشو!.

كانت هذه الآلهة الرئيسية التي لعبت الأدوار الأساسية في قصة الخلق؛ وفسرت كيف تسير الحياة عند السومريون .....

* * * *

وكانت هناك آلهة أخرى أقل شأنًا من الآلهة الرئيسية لكنها موجودة أيضًا يعبدها الناس حسب الحاجة، مثل (أرشكال) الذي كان مسؤولًا عن أوضاع الموتى وقضاء حوائجهم، أو (إينانا) إلهة الرعاة أو نجمة الصبح...، أو (كينغو) إله القمر، أو (نانا) إلهة القمر، أو (نابو) إله الأدب والكتابة، أو (نرغال) إله الأوبئة والكوارث الطبيعية، وكان هناك إله لا شغل له سوى أن يمنع نهر الفرات من الفيضان وآخر لا عمل عنده إلّا أن يصنع الخمر!.

* * * *

لكننا قلنا: إن معبد (الزقورة) الهائل قد بني من أجل عبادة إلهة القمر (نانا) بالذات، وهي ليست من الآلهة الرئيسية، فكيف ذلك؟

نعم كانت الأدوار تتبدل، فقد كان الملوك يقررون من هو الإله الأهم

من عهدهم... ويشيدون له معابدَ ويضعون تماثيله في كل مكان...

وكان إله القمر محظوظًا مع (أورنمو) واحد من أهم ملوك أور، فقد صحا الملك ذات يوم وفي مزاجه أن إله القمر هو الإله الأهم والأقوى، وقرر أن يجعل له أكبر المعابد وأعظم التماثيل...

بل إنه قال للناس أيضًا: إن إله القمر قد جاءه ومنحه حق البطش، وقتل أي من خصومه...

وكان على الناس أن يصدقوا ذلك، فإله القمر قال ذلك للملك العظيم...

ومن كان يمكنه أن يتحقق مما تقوله الآلهة للملوك فيما بينهم.

مفهوم طبعًا.

لعلكم ستعجبون من كل ذلك.

كيف لأي إنسان أن يصدق كل هذا؟. كيف يمكن لإنسان عاقل أن يؤمن بكل هذا العدد من الآلهة التي تتزاوج فيما بينها، وتتشاجر، وتغار، وتتنافس، كما لو كانت في روضة الأطفال؟!......

بل كيف يمكن لحضارة أنتجت بناء شامخًا وعاليًا مثل الزقورة أن تصدق بهذه السخافات؟.

نعم. نسأل ذلك الآن... ونعجب منه كثيرًا. لكن كل الحضارات في ذلك الوقت كانت تفكر بهذه الطريقة، وفي كل مكان من العالم القديم: في مصر، وفي سورية، كانت هناك الآلهة نفسها، ربما بأسماء مختلفة، وكانت كلها تتصرف كتصرف الأطفال في الروضة!.

كل هذا كان طبيعيًا جدًا.

ستقولون: ما هذه السخافات؟.

لكن الناس وقتها ما كانوا يعدّون ذلك سخافة. بل كان تفكيرهم كله مبنيًا على هذا...

كل الناس؟.

نعم كل الناس.

إلا واحدًا فقط، سبق عصره وزمانه، وقال فجأة: ما هذه السخافة؟ كما تقولون اليوم.

كان بمثل سنكم، أصغرَ أو أكبرَ قليلًا.

إنه فتى يقال له: إبراهيم.

* * * *

الفتى إبراهيم

لم يكن هذا الفتى يفرق شيئًا عن كل الفتيان في عصره، ولا الفتيان في أي عصر آخر...

لم يكن قادمًا من عصر آخر، عبر مركبة فضائية، نقلته من عصرنا مثلًا، فلا يؤمن بسخافات الآلهة والأوثان، وجعلته يرى الأمور كما نراها اليوم.....

ولم يكن له دماغان في رأسه، إنما هو دماغ واحد كما للجميع.....

كان له عينان اثنتان... وأذنان اثنتان... مثلنا جميعًا... ومثل

كل أقرانه لم يكن لديه حواس خارقة من أي نو ع..... لكنه تعلم أن يستخدمها بطريقة مختلفة...

وجعله ذلك يكتشف أن لديه شيئًا عظيمًا في داخله... لكن أحدًا لم يكن قد أخبره كيف يستعمله... لأن أحدًا لم يكن يعرف بوجوده.

ما هذا الشيء؟ سنعرف لاحقًا.

* * * *

ولد إبراهيم في تلك المدينة العظيمة التي تملك من الآلهة والأوثان بقدر ما نمتلك اليوم من أعمدة الكهرباء، وكلها آلهة تتصرف كما عرفنا: تتزوج، وتطلق، وتغضب، وتغار، وتتشاجر، وتصيب بالأوبئة والفيضانات...

كانت أسرة إبراهيم أسرة متدينة جدًا؛ توقر الآلهة كلها وكانت الآلهة في كل مكان في البيت؛ واحد قرب عتبة الدار يستقبل الزوار أو يحرس البيت من اللصوص، وآخر قرب المطبخ، ربما ليساعد في إعداد الطعام. وآخر قرب غرفة النوم، ربما ليقلل صوت الشخير، وآخر - زعيم - يتوسط باحة الدار قرب اللوح المرمري الذي يمثل صورة جد إبراهيم... بالإضافة إلى آلهة أخرى صغيرة، تعج بها غرفة الضيوف...

* * * *

عندما كان إبراهيم صغيرًا، كان يحب اللعب بالتماثيل التي يعبدها قومهظ كان يعبث بها كدُمى صغيرة، كما يفعل صغار اليوم مع ألعاب الرجل الخارق، أو الرجل الوطواط... وكما تفعل البنات الصغيرات مع دمية باربي أو فلة.

ولم تكن أسرة إبراهيم تقبل بهذا العبث، وطالما صرخت به أمه أن الإله (آن) سيحرمه من النور، أو أن الإله (نرغال) سيصيبه بمرض عضال، أو أن الإله (أنكي) سيغرقه في الماء...

وكان إبراهيم يتحدى هذا كله، فيضع الآلهة السخيفة بالضبط فيما يهددونه به...

كان يضع الإله آن، إله الشمس في صندوق مظلم، في داخل غرفة مظلمة، ويتحداه أن يعرف طريقه في الظلام! وكان يضع الإله الذي يمنع الفيضان في قعر إناء ملئ بالماء، أو يرميه داخل البئر، ويطلب منه أن ينقذ نفسه...

وكان يأتي بالإله الذي يصنع الأوبئة والأمراض، فيوسعه ركلًا وضربًا، ويكسر عنقه، ويتحداه أن يصلح نفسه...

وكان أحيانًا يسخر من الإلهة الأم، فيأخذ صغارَها - الآلهة أيضًا - منها ويخبئها داخل القبو، أو على سطح المنزل، أو بين الجرار والأواني... وكان يتحداها أن تجدها...

ولكنه كان يلاحظ أنها لم تكن تتنبّه لذلك.

* * * *

وفي كل مرة كان إبراهيم يفعل ذلك، كان يسمع التأنيب والتعنيف من جدته خصوصًا...

«إبراهيم... يا إبراهيم... ستمسخك الآلهة قردًا قبيح الشكل إذا ما واصلت العبث بها يا إبراهيم»...! كانت جدته التي تعيش معهم في المنزل تصيح به كلما وجدته يلعب بالآلهة...

«سأصير إذن قردًا يلعب بالآلهة إذا فعلت ذلك، وسيكون لعبي

عندها أكثر عـنفًا...».

كان إبراهيم يعلق ويجعل جدته تصرخ أكثر:

«ستمسخك الآلهة إذن حشرة قبيحة، ستصحو ذات يوم وتجد أن لك أجنحةً كالذباب بدلًا من الأيدي...».

«هذا أفضل، أتمنى ذلك، عندها سأتمكن من الطيران بجناحيّ والتحليق بهما، وسأطير وأدور حول الآلهة إلى أن أجعلها تدوخ وتندم على ما تفعله بي...» كان إبراهيم يقول ذلك وهو يتكلّف الجدّ.

وكان إبراهيم يزيد في غضب جدته، ويجعلها تنادي الآلهة وهي تقول: «اشهدي يا آلهة اشهدي، إنني بريئة مما يفعله إبراهيم بك، فلا تعاقبيني أنا بما يفعله هو...»

كان إبراهيم يقول لها: «ارفعي صوتك قليلًا يا جدتي، إذ أن الآلهة أضحى سمعها ثقيلًا هذه الأيام... ولذلك أنصحك أن تصرخي بأعلى صوتك عسى أن تسمعك...».

ولكن - لا أخفي عليكم -، كان إبراهيم لا يحب هذا الذي تقوله جدته، فهو إنسان ولا يحب أن يصير حشرة.

وكان ينام كل ليلة وهو يفكر بهذا، لكنه يصحو كل صباح فيجد نفسه كما كان، إنسانًا صحيح الجسم كامل الأعضاء.....

ومع الوقت، اقتنع أن جدته إنما تقول هذا الكلام لتخوفه وتمنعه من اللعب بالآلهة.

وزاده ذلك إصرارًا على اللعب بها.

وأمعن في إهانة تلك التماثيل التي كانت ذات فائدة واحدة فقط في نظره: اللعب.

* * * *

كيف؟ لماذا؟ من؟

ومع الوقت تحول إبراهيم من اللعب بالآلهة واستعمالها دمى، إلى التساؤل عنها.....

اكتشف إبراهيم ثلاث كلمات ظل يستعملها طوال عمره فيما بعد، وفتحت له أبوابًا مغلقة وجعلته يدخل عوالمَ لم يدخلها أحد قبله...

تلك الكلمات كانت: كيف؟، لماذا؟، من؟.

استعمل إبراهيم تلك الكلمات مع كل جملة يقولها، مع كل ما كان يشاهده ويلاحظه حوله...

وانتبه إلى أن كل سؤال كان يطرحه، مع تلك الكلمة، كان يواجَه بالغضب والصياح من قبل أهله... وكان ذلك يعني أنْ لا جواب لديهم.

* * * *

سأل إبراهيم: كيف يمكن لهذه الآلهة أن تفعل أي شيء أو تدبر أي أمر من أمور العالم، وهي تبدو عاجزة مستسلمة بين يديه، وهو يلعب بها أو يشنقها، أو يرميها في البئر؟...

وسأل أيضًا: لماذا نعبدها ونسجد لها إذا كانت عاجزة هكذا؟



* * * *

صُدِمَتْ أسرة إبراهيم من هذه الأسئلة، لقد كانوا واثقين تمامًا من أن الآلهة هي التي خلقت هذا العالم، فبالنسبة إلى والد إبراهيم، كان طبيعيًا جدًا، لقد نشأ على هذا، والده آمن به، وجده، ووالد جده، وجد جده، وجد جد جده، كلهم آمنوا بهذا، كل (الآباء) كانوا يؤمنون بهذا، ولم يكن يُعْقَلُ أنهم كانوا على خطأ...

كانت جدة إبراهيم تصيح وتتوعد في كل مرة يستعمل إبراهيم هذه الكلمات: كيف؟، ولماذا؟، ومن؟... وكانت تقول: إن الآلهة تعاقبها، وتنزل عليها أوجاع الظّهر والمعدة بدلًا من أن تنزلها على هذا الولد المشاكس..... ومن ثم كانت تؤكد لإبراهيم أن الآلهة ستمسخه قردًا أو حشرة ذات يوم...

وكان إبراهيم يضحك في سرّه على ما تقوله جدته، فقد كان تبيّنَ في الليلة السابقة ذبابةً واقفة على أنف الإله الكبير في المعبد...

كان الإله أضعف من أن يزيحها عنه، لولا أن انتبه الكهنة بعد قليل وتراكضوا ليزيحوا الذبابة الصابئة عن أنف الإله الكبير...

فكيف يمكن لإله عاجز مثل هذا أن يمسخه قردًا أو حشرة؟.

* * * *

لم يكن والد إبراهيم رجلًا متدينًا فحسب؛ يؤمن بالآلهة ويجلها ويعبدها، بل كان يكسب خبزه من إيمان الناس بها.

كيف؟.

كان والد إبراهيم يعمل نحاتًا، يصنع التماثيل من الحجر، على هيئة الآلهة التي يعبدها أهل أور... وكان من أفضل النحاتين

في المدينة، وكانت الآلهة التي يصنعها من أفضل الآلهة التي يبتاعها الناس...

وكان إبراهيم يذهب مع والده إلى متجره، ليساعده في حمل الحجز والأخشاب التي يستخدمه والده في صنع الآلهة، لكنه لم يساعده أبدًا في صنع التماثيل أو بيعها إذ لم يكن مقتنعًا بذلك، وكان يلاحظ أن بعض الآلهة تنكسر وتتحطم في أثناء صنعها، وأن والده كان يرميها دونما اهتمام مع النفايات، وأن بعض الآلهة تكون أقل إتقانًا من غيرها، فيبيعها والده بسعر أقل لفقراء المدينة حتى لا تكسد «وتبقى على قلبه» في المتجر كما يقولون.

ولا أخفي عليكم أيضًا، كان إبراهيم يتعمد أحيانًا أن يسقط الآلهة من يده لتتحطم، وكان في كل مرة يختار إلهًا يُسقطه من يده، جرّب الآلهة جميعًا، وتأكد أنه كلها سريعة الكسر، لا فرق بين إله غالي الثمن وآخر رخيص...

الفرق فقط أن والده سيغضب أكثر من أجل الإله غالي الثمن...

* * * *

ولاحظ إبراهيم أيضًا أن مستوى مبيعات الآلهة في المتجر يتأثر بالمواسم، كما يحدث عندنا في مواسم الأعياد، فتزيد مبيعات الهدايا... أو في مواسم بداية الدراسة إذ تزداد مبيعات الدفاتر والأقلام...

وعندما يقترب موسم الفيضان، كان والده يحضر عددًا كبيرًا من إله معين، لأن الناس كانوا على الأكثر سيتعبدون له لينجيَهم وينجيَ محالّهم من الفيضان...

وعندما يقترب موسم الصيف، كان والد إبراهيم يهيئ عددًا كبيرًا من تماثيل إله الشمس، فيبتاعه الناس ويتعبدون له، طالبين ألا يكون الحر شديدًا لهذا الموسم... وعندما يأتي الشتاء، ويتأخر المطر، كانت مبيعات إله المطر تزيد... وهكذا..... كل إله له موسمه وموسم عبادته...

* * * *

آلهة وكروش

ولاحظ إبراهيم، أن رجال الدين في معابد الزقورة كانت لهم علاقة جيدة مع والده... ولاحظ أنهم عندما يؤدون مراسم العبادة أمام الناس، يوصونهم بعبادة إله معين لهذا الأسبوع، واحدٍ من عشرات الآلهة الموجودة في المعبد، وكانت مبيعات هذا الإله تزداد في متجر والد إبراهيم، فالناس بسطاء ويطيعون ما يقوله الكهنة، لأنهم يخافون أن يحل عليهم لعنة الآلهة فتمسخهم قردة أو حشرات.....

ولاحظ إبراهيم، أن رجال الدين كانوا يمرون بالمتجر في نهاية الأسبوع، فيعطيهم والده كيسًا من العملات الذهبية والفضية فيحسبونها، ثم يمضون، تسبقهم كروشهم الممتلئة.....

وعندما كان إبراهيم يسأل والده، لِمَ يعطي هذه النقود لهؤلاء وهم لا يساعدونه في النحت أو في حمل الأحجار.....؟!

كان يجيبه أنّ عملهم مرتبط بأكثر من هذا، فلولا أن رجال الدين يقولون للناس: اعبدوا هذا الإله أو ذاك، لكسدت التماثيل في المتجر ولما اشترى أحد شيئًا منها...

* * * *

كان والد إبراهيم يتركه وحده في المتجر أحيانًا، فكان إبراهيم يستقبل زوار المتجر الذين يرغبون في شراء هذا أو ذلك من الآلهة، وكان يعمل على إقناعهم بعدم شراء ما لا ينفع، وكان يعجب من طلبات الزوار ورغباتهم، فذات مرة أتته سيدة تحمل طفلة رضيعة على صدرها وتجر معها ست إناث، وقالت له: إنها تريد شراء الإله (أنشار) لكي يؤمّن لها إنجاب طفل ذكر هذه المرة...

فردّ عليها إبراهيم: لكنني أذكر جيدًا أنك ابتعت هذا الإله قبل أن تنجبي طفلتك الأخيرة هذه، أليس ذلك صحيحًا؟

ردت المرأة: نعم صحيح، لقد اشتريته فعلًا...

أجابها إبراهيم: وهل انتهت فترة صلاحيته بهذه السرعة؟ هل أخذت ضمانًا باستبدال هذا الإله إذا لم يرزقك ذكرًا؟

ردت السيدة ورأسها في الأرض: لا، لم يحدث... قال إبراهيم: وأنا واثق تماما: إنك سبق واشتريت الإله أنشار منذ أول حمل لك..

قالت السيدة: نعم، لدي سبعة الآن منه...

سألها إبراهيم: ومع ذلك فأنت لا تزالين تعتقدين أن بإمكان الإله (أنشار) أو نسخة ثامنة منه أن تؤمّن لك ذكرًا؟

ردت السيدة ووجهها يطفح بأمل: قال لي كهنة المعبد إنني ربما اشتري نسخًا مقلدة وغير أصلية أو رخيصة من الإله (أنشار) ... ولذلك أخبروني أن أطلب من والدك أن يصنع لي خصيصًا نسخة أصلية غاليةَ الثمن من الإله أنشار... لا يهم السعر، سأتدبر الأمر... أريد ان أنجب الذكر...!

فكر إبراهيم: الكهنة إذن؟ ونسخة ثامنة هي الأغلى!، لا بد أنّ لهم حصة من هذا السعر.

* * * *

وكان إبراهيم يلاحظ كروش رجال الدين تزداد امتلاءً حتى لتكاد تنفجر من شدة امتلائها...

وكان يسأل نفسه، لماذا تزداد بطون هؤلاء امتلاء، بينما الناس يزدادون هُزالا وجوعًا؟.

* * * *

وذات يوم، وفي عيد من الأعياد الكثيرة، كان على الناس أن يقدموا القرابين والذبائح للآلهة، ذهب إبراهيم مع والدته وجدته إلى المعبد، وقدم والده ذبيحة كبشًا كبيرًا، وقدمت جدته ذبيحة أخرى، لعل الآلهة تشفيها من أوجاع الظهر والبطن التي تشكو منها...

ورأى إبراهيم كوم الذبائح والقرابين أمام الآلهة... ونظر إلى الآلهة وسأل نفسه إن كانت الآلهة ستأكل كل هذه القرابين وحدها، وسأل إن كانت تشعر بالجوع كما نشعر نحن حين نرغب في الطعام، وسأل إن كانت الآلهة تشعر بأي شيء على الإطلاق، وإذا كانت تشعر بالجوع فما امتيازها عن البشر إذن؟

كان إبراهيم يعرف الجواب: إنها لن تأكل هذه الذبائح أصلًا، لأنها لا تستطيع أن تفتح أفواهها... ونظر أيضًا إلى كروش رجال الدين، وهم يؤدون الصلاة، فتصور أن فيها مجالًا كافيًا للحوم القرابين.

عزم على أن يتأكد من ذلك... فبقي في المعبد بينما ذهب أهله،

واختبأ بين الآلهة، وانتظر إلى أن ذهب الجميع، وفرغ المعبد إلا من رجال الدين...

وعندها، وبينما كان إبراهيم مختبئًا، ولا أحد يراه، رأى هو أولئك الكهنة وهم يهجمون على الذبائح، ويعدون لشيها وطبخها، ومن ثم يهجمون على الطعام ليأكلوه، ويملأون بطونهم الممتلئة أصلًا، ثم يتجشأون، ويتثاءبون، وينامون أمام الآلهة التي لا يبدو عليها أبدًا أنها قد شعرت أن رجال الدين قد سرقوا ما كان مقدمًا لها.

عرف إبراهيم حينها الجواب عن ذلك السؤال الذي كان يدور في باله: لماذا كانت بطون هؤلاء تمتلئ بينما الناس يزدادون هزالًا ؟.....

وكان يزداد ثقة مع الوقت، أن هذه الآلهة هي ليست آخر من يعلم ما يجري فحسب ..

بل إنها لا تعلم أصلًا ما يجري.

* * * *

وذات يوم، كانت والدته تنظف المنزل كله، وتعيد ترتيب أثاثه وفرش السجاد استعدادًا لموسم الشتاء البارد، ولأنها لم تشأ أن تزعج الآلهة بغبار التنظيف فربما كانت الآلهة تعاني من الربو أو الحساسية، فقد جمعتها في ركن ما، ووضعت عليها غطاء سميكًا يحميها من أثر الغبار...

ولأنها كانت متعبة من العمل طوال النهار، فقد نسيت أن ترجع كل إله إلى مكانه، ونامت والآلهة في الركن ومغطاة بغطاء سميك.....

عند منتصف الليل، استيقظ إبراهيم عطشانًا، كما تستيقظون أنتم أحيانًا، فذهب ليشرب الماء وهو يتلمس طريقه مثلما تعوّد، لكن شيئًا مختلفًا كان هذه المرة، فوجد نفسه يعثر في الظلمة، وأعقب ذلك صوت قوي لتحطم أشياء لم يفهم ما هي... وتصور أنه أسقط دلوًا أو جرة من الجرار التي يخزنون فيها الحبوب، وقد غيرت أمه موقعها بسبب تهيِّئها للشتاء.

في الصباح ذهبت أمه لترجع الآلهة إلى أماكنها، خاصة أن جدته كانت تلح أن تحضر لها إلهها المفضل، إله الطب والصحة، لكي يخفف آلامها المزمنة...

وعندما رفعت الأم الغطاء، صرخت مرعوبة، بينما انطلقت الجدة تولول وتندب، كانت الآلهة كلها قد تحطمت، واختلطت أجزاؤها بعضها ببعض، إله الشمس اختلط بإله القمر، إله الفيضان بإله المطر، إله الصحة بإله الأوبئة، كلهم تحطموا واختلط حطامهم...

كان إبراهيم يقف مدهوشًا هو الآخر: «ما هذه السخافة»، كان يقول في نفسه: لماذا يؤمن الناس بهذه التماثيل رغم أنهم يرونها عاجزة ومحطمة وغير قادرة على فعل شيء؟ لقد رأوها كيف تحطمت ولم تستطع أن تدفع عن نفسها أثر عثرة غير مقصودة، فكيف يتصورون بعد ذلك أنه ستدفع عنهم وتشفيهم، وتنزل لهم المطر، أو تمنع عنهم الفيضان؟

* * * *

بعض الناس رؤوسهم مختلفة

اكتشف إبراهيم شيئًا فشيئًا أن ثمة خطأً في رؤوس الناس المحيطين به ممن يؤمنون بذلك العدد الكبير من الآلهة..

لكنه كان خطأ غير ظاهر، فما تحويه رؤوسهم كان سليمًا، عيونهم تعمل بشكل جيد، وكذلك آذانهم، وحتى ألسنتهم كانت تعمل بشكل سليم، كان لديهم مشكلة في الربط.....

كانوا لا يربطون بين ما يرون أو ما يسمعون، وبين ما يفعلونه مع الآلهة. كانت رؤوسهم عاجزة عن جعلهم يربطون بين مختلف المشاهد التي تمر بحياتهم...

فلو ربطوا بين مشهد تحطم الآلهة مثلًا، أو بين ما يرونه من كونها جمادًا، وبين ما ورثوا من آبائهم من إيمان بها... لكفّوا عن عبادتها، ولقالوا كما قال إبراهيم، وكما قلتم أنتم: «ما هذه السخافة»...!

كانت رؤوسهم إذن لا تعمل بشكل كافٍ، كانت لديهم مشكلة في الربط بين الأشياء.

وإبراهيم لم تكن لديه هذه المشكلة، كان يربط بين كل ما يراه وكان يجد في هذا الربط أجوبة عن أسئلته الكثيرة.

* * * *

و ذات يوم كان إبراهيم على عادته مع والده في المتجر، يساعده في تنظيف المكان...

كان الطلب على الآلهة قويًا جدًا في هذا الموسم، فقد اتفقّ الفيضان مع مجيء الجراد، وكذلك مع موسم حرّ قوي جدًا،

وكان لكل هذا إله مفضل يمكن أن يمنعه، وكان رجال الدين يلومون الناس في المدينة ويقولون لهم: إنهم فرّطوا في حق الآلهة ولم يرضوها تمامًا، لذلك فقد غضبت عليهم وأنزلت بهم كل هذه المصائب... وكانوا يطلبون من الناس أن يزيدوا في القرابين والذبائح، وأن يكثروا في وضع الآلهة في كل مكان والصلاة لها في كل وقت...

ولذلك كان الطلب على الآلهة كثيرًا جدًا في متجر والد إبراهيم، الذي كان يعمل منذ شروق الشمس إلى غروبها كي يلبي طلبات الزبائن على تلك الآلهة التي ستوقف الحر وتمنع الفيضان وتزيح عاصفة الجراد...

كان والد إبراهيم متعبًا جدًا من العمل، جلس على الدكة ليرتاح، وأغمض عينيه قليلًا، قبل أن يسأله إبراهيم...

«... أبي، كيف يمكن لآلهة تصنعها أنت، أن تكون قد صنعتك أنت، أو صنعتني أنا أو صنعت هذا الكونَ كله...» .

لم يفتح والد إبراهيم عينيه. ولكنه سكت قليلًا. ثم قال: «يا إبراهيم، سأسألك هذه المرة أنا سؤالًا».

«تفضل يا أبت»، كان إبراهيم على الدوام مؤدبًا مع والده، رغم كثرة أسئلته المحرجة.

«هل تعلم يا إبراهيم، أننا كلنا سنموت من الجوع، لو أن كل الناس كانوا يفكرون مثلك...»

«لماذا يا أبي...؟»، سأل إبراهيم بعد تردد.

«لأنهم لو كانوا يكثرون من الأسئلة، كما تفعل أنت، لكفوا عن شرائها من متجري، ولجلست أنا هنا بلا عمل، ولا نقود، ومن ثمّ

كنا متنا من الجوع».

قال هذا وهو لا يزال مغمضًا عينيه.

«أفهمت؟» قال بعدها.

وفهم إبراهيم.

إذن ليس كل الناس لا يربطون.

هناك من يغمض عينيه، من يفضل ألا يرى الحقيقة، حتى لا تتهدد مصالحه وأمواله.

* * * *

وذات يوم كانت العائلة كلها قد اجتمعت على طعام العشاء، كما تجتمعون أنتم مع أهلكم، وبعد أن شكر الأب إله الطعام على وجبة العشاء، وقبل أن يبدأ الجميع بتناول الحساء، سأل إبراهيم والده بشكل سريع ودون مقدمات: «أبت، ما اسم الإله الذي يقوم على منع البعوض من اللسع؟...».

لم يكن هناك إله يقوم بهذه المهمة، لم يذكر الكهنة هذا الأمر في كتبهم ومراسيمهم، لقد نسوا لمن يسندون مهمة القضاء على البعوض.

قال الأب، على تردد: «لابد أنه أليل!».

قالت الجدة: «أظن أنها الإلهة (نين) فهي المسؤولة عن أمور الصحة».

قالت الأم: «بل هو الإله أنكي... إنه طيب جدًا، وقد جربته مع الذباب في الصيف الماضي وقد نفع، وما ينفع مع الذباب ينفع

مع البعوض».

«تذكرت!» قالت الجدة: «إنه الإله نرغال، لقد ذكر ذلك كبير رجال الدين في الشهر الماضي عندما كان يذكر وظائفه...».

«بل هو آن كبير الآلهة» قال والد إبراهيم.

«آن ليس لديه وقت لهذه التفاهة، لابد أن زوجته آنتو هي من يفعل ذلك»، قالت والدة إبراهيم ذلك وهي تتذكر كل المهام الشاقة التي تقوم بها الزوجات في أور...

عدّت الجدة ذلك تجاوزًا شخصيًا عليها، وعلى مكانتها، فالتلميح إلى أن الزوجة هي من يقوم بكل شيء يمس المهام التي تقوم بها.

فقالت بحدة موجهة كلامها لزوجة ابنها: «بل أنت مخطئة يا عزيزتي، إنها الأم نين، من يقوم بذلك».

قالت والدة إبراهيم: «ولكنك قلت للتو: إنه الإله نرغال».

«كنت مخطئة، إنها نين»

«بل هو الإله: الأب آن». قال والد إبراهيم

«بل الإله: الأم نين»

«بل زوجة آن : آنتو».

وعلا صياح الجميع وهم يذكرون أسماء الآلهة ويصرون عليها، ويؤكدون أنهم واثقون تمامًا أن البعوض هو اختصاص هذا الإله وليس الآخر.

كان إبراهيم يراقبهم وقد علت وجهه ابتسامة، لقد سقطوا في

الفخ الذي نصبه لهم...

انتبه والد إبراهيم إلى الابتسامة على وجه ابنه، فصاح: «أنت يا ولد، ما الذي ذكرك بالبعوض الآن؟ لا أرى أثرًا للسع البعوض على وجهك!...».

أخفى إبراهيم الابتسامة بسرعة، وانسحب من الطعام وهو يقول: «فقط كنت أسأل...».

ثم قال بصوت خفيض: «يبدو أن هناك في العالم من الآلهة، أكثر مما فيه من الحشرات».

* * * *

عرض خاص للآلهة...!

لا تفتكم الفرصة

وكان والد إبراهيم يشارك أحيانًا في مواسم الأعياد الكبيرة بالبيع المباشر في السوق، جنبًا إلى جنب مع الخضروات والفواكه والأقمشة والحيوانات، وكل ما يمكن تخيل أنه يباع في السوق...

وفي مرّة لم يستطع والده الذهاب، فأرسل إبراهيم بدلًا عنه إلى السوق، كان إبراهيم يقف ويتأمل حركة البيع والشراء فيلاحظ ان الناس تقبل على شراء الأطعمة والألبسة أكثر مما تقبل على شراء الآلهة، فكر إبراهيم أن هؤلاء الناس محقّون، فالطماطم مفيدة ولذيذة أكثر من هذه الآلهة التي لا تضرّ ولا

تنفع، وكذلك الدجاج الحي فهو على أقل تقدير يصيح صبحًا وينبه الجميع من النوم ويمكن ذبحه وأكله، أما هذه الآلهة فهي لا توقظ أحدًا من النوم ولا يمكن أكلها، وكذلك الألبسة السميكة المصنوعة من أقمشة جيدة فهي تقي البرد وتسر بألوانها ونقوشها، أما هذه الآلهة فإنها لا فائدة فيها إطلاقًا.

لكن إبراهيم لم يكن يود أن يرجع إلى المتجر وهو يحمل كل تلك الآلهة التي أثقلت ظهره في الطريق إلى السوق، وإنما كان يريد أن يبيع أكبر عدد من الآلهة حتى يكون حمله خفيفًا عند الرجوع، لذلك قرر إبراهيم أن يستميل الناس لشراء الآلهة. لكن ماذا يقول لهم؟ كيف يقنعهم بشراء تلك الآلهة التي لا تنفع ولا تضر؟ كيف يجعلهم يبتاعون ما لا فائدة فيه؟ كما أنه لم يكن مقتنعًا ببيع الآلهة، لذلك قرر أن يبيع هذه التماثيل لا على أنها آلهة، ولكن لاستعمالات أخرى يمكن أن تؤديها.

أخذ إبراهيم ينادي بأعلى صوته كما يفعل باعة الخضراوات: آلهة للبيع، آلهة للبيع... تنزيلات... اشتر أربعة آلهة وخذ الخامس مجانًا... اشتر خمسة بسعر أربعة... آلهة للبيع... لا تفتكم الفرصة... تنزيلات هامة...

ثم أخذ ينادي على المارة: سيدتي، هذا الإله له فوائد عديدة، تستطيعين أن تهددي طفلك به إذا رفض أن ينام أو إن لم يكن مطيعًا، تستطيعين أيضًا أن تستعمليه لإخافة الفئران أو الكلاب أو القطط، وإذا تحطم عند كرسي أو منضدة فتستطيعين أن تسنديه بهذا الإله...

سيدي، لا يَفُتْكَ هذا العرض الهائل، إن هذا الإله هو ثلاثة في واحد، تستطيع أن تعبده إن شئت، رغم أني لا أنصح بذلك، وتستطيع أن تستعمله كلعبة لأبنائك، وتستطيع أن تستعمله

كثقل حتى لا تتطاير أشياؤك.

ظل إبراهيم يصيح وينادي وهو يروج للآلهة: تنزيلات، تنزيلات.

وفعلاً، تمكن إبراهيم بهذه الطريقة أن يبيع ثلاثة آلهة، ولكن كلها بيعت لتستعمل ليس كآلهة! واحد منهم اشترته سيدة طلبت أكثر الآلهة قبحًا، لأن ابنها مشاكس جدًا وتريد إخافته جدًا، وآخر اشتراه لابنه المدلل كلعبة بدلًا عن لعبة أخرى سبق وتحطمت، وثالث اشترته سيدة عجوز لأنه يذكرها بكلب كانت قد ربّتْهُ، ولكنه هرب في الصيف الماضي...

..الفصل الثاني..

العالم بعيون مختلفة

في مواجهة الكهنة

وذات يوم ذهب إبراهيم إلى المعبد الكبير (الزقورة) وجلس يتفرج على تماثيل الآلهة المرصوصة فيه، بعضها كان هائل الحجم، وبعضها جميلًا متقن الصنع، وبعضها قبيح الشكل ومرعبًا، أخذ إبراهيم يحسب تلك الآلهة واحدًا واحدًا، وصل إلى أن يصنفها ويضعها في مجموعات، ويحسبها داخل كل مجموعة: مثلًا مجموعة الآلهة المتوسطة الحجم... مجموعة الآلهة القبيحة... وهكذا...

وبينما هو يفعل ذلك، جاء رجال الدين تسبقهم كروشهم أمامهم كما لو كانوا نسوة حوامل في الأشهر الأخيرة من حملهنّ، كانوا يعرفون إبراهيم جيدًا بسبب معرفتهم لوالده، وكانوا كثيرًا ما يشكون لوالده أنّ إبراهيم ليس حريصًا على عبادة الآلهة وأداء الصلاة لها...

قال واحد منهم، وكان أكثرهم غباء وأشدهم سمنة: «آه، إبراهيم أيها الولد الشقي، أخيرًا جئت لتتعبد للآلهة العظيمة،



كنت واثقًا من ذلك، فوالدك شخص تقي ولا بد أنك ستكون مثله، كل آبائك كانوا أتقياء ولم يكن منهم شخص خرج عن موروثهم».

«في الحقيقة» قال إبراهيم: «لقد جئت لأسأل الإله نابو سؤالًا محددًا!».

أصغى رجال الدين إلى ما يقول إبراهيم وضاقت أعينهم وهم يسألونه: «الإله نابو بالذات؟».

قال إبراهيم: «نعم، أليس هو إله الكتابة؟، كنت أسأل إذا كان ذات يوم قد ضجر وجلس يتسلى بكتابة أسماء الآلهة حوله؟».

ضاقت أعين رجال الدين أكثر: «وماذا تفعل بهذه الأسماء يا إبراهيم».

قال لهم إبراهيم: «أبدًا، كنت أريد أن أعرف عدد الآلهة بالتحديد».

ارتبك رجال الدين فقد كان عدد الآلهة يزيد وينقص حسب مزاج الملوك ورغباتهم وحسب مصالح الكهنة أنفسهم وحاجاتهم إلى الأموال...

قال له أقصرهم وأخبثهم وهو يتكلف الرقة واللطف: «إنه أمر غير مهم على الإطلاق يا إبراهيم، عدد الآلهة غير مهم، إنه أمر من الأمور التي لا داعي للتفكير فيها، لن ينفع التفكير في عددها، لن يصيبك إلا الصداع من هذا، المهم أن نعبدها ونطيعها...»

لم يكن هذا مقنعًا أبدًا لإبراهيم، فقال: «لكني كنت أسأل إن كان ثمة فائدة من كل هذا العدد الكبير من الآلهة؟».

«الفائدة؟!» رددوا جميعًا بذهول، لم يفكروا قط أن يكون هناك فائدة غير تلك الأموال والذبائح التي ستزيد كلما زاد العدد.

ساد الصمت لحظات، ثم قطعه أطولهم قامة بضحكة مفتعلة قلدها جميع رجال الدين، ثم قال: «كنا نظنك أذكى من هذا يا ولد!»... «ألا ترى كم هو كبير هذا العالم بشمسه وقمره ونجومه وبحاره ومحيطاته وأنهاره وناسه؟...»

قال الطويل فيهم: «ومثل هذا العالم الكبير يحتاج إلى عدد كبير من الآلهة لتسيير شؤونه...»

قال القصير الماكر: «في الحقيقة إنهم يبذلون جهودًا كبيرة».

قال أغباهم وهو غير مدرك أي فخ وقع فيه: «وهم يحتاجون إلى آلهة إضافية لتساعدهم في العمل».

سأل إبراهيم بمكر: «إذن هم لا يكفون لإدارة العالم ؟»

ساد الصمت بعد هذا السؤال، وبدأت وجوههم تحمر وتتصبب عرقًا، وتظاهر أحدهم بأن هناك من يناديهم من بعيد ليجد حجة لإنهاء النقاش...

وقال الطويل: «ليس هذا، لكن الآلهة المعظمة تبذل جهودًا كبيرة من أجلنا، وكل ما يواجهه البعض هو النكران والأسئلة... بينما يجب أن نؤدي مزيدًا من القرابين...».

قالها ونظروا إليه جميعًا، وهم يقولون شبه مهددين: «أفهمت؟».

نظر إبراهيم إلى كروشهم وقال: «فهمت طبعًا، فهمت أكثر مما تتصورون...».

عندما خرج من المعبد لاحظ أن أحد الخدم يمسح الغبار عن

واحد من الآلهة.

فكر إبراهيم أن إلها غير قادر على تنظيف نفسه لا يمكن أن يكون له أي وجود.

* * * *

أيقن إبراهيم أن تلك الآلهة التي يعبدها قومه لا وجود لها إلا في خيالات السُّذّج من الناس، وفي جيوب المستفيدين من أصحاب المصالح...

لكنه كان يسأل نفسه: ما دام هذا العالم موجودًا فلابد أن يكون له من أوجده، تلك التماثيل موجودة لأن والده نحتها، ذلك المعبد موجود لأن الملك أمر ببنائه. كان إبراهيم يستخدم ذلك الشيء الموجود في رأسه والذي لا يتوافر عند الآخرين، يستخدم أدوات الربط الموجودة عنده والتي تجعله يربط بين المشاهد، والأحداث، ويخرج منها بفكرة واستنتاج...

كان إبراهيم يتجول في المدينة وفي البساتين القريبة ويجلس عند النهر... يراقب كل شيء ويقول في نفسه: لا بد أن يكون هناك من خلق هذا كله، لكنها ليست تلك الآلهة الغبية التي يصنعها والده، ولا بد أن يكون هناك من خلق هذا كله...

كان إبراهيم يسرح بخياله بعيدًا، وهو ينظر في السماء: «مَنْ إذن خلق كل هذا، إذا لم تكن هذه الآلهة؟»... وكان إبراهيم يتساءل إن كان هناك جواب لسؤاله هذا في البلدان المجاورة، أو حتى في البلاد الأخرى البعيدة...

كان يذهب إلى التجار الذين يذهبون إلى تلك البلاد البعيدة فيسألهم عن آلهة تلك البلدان ومعتقدات أهلها، بل إنه كثيرًا ما

كان يسأل والده، الذي ذهب عدة مرات قبل ولادة إبراهيم، إلى بلاد بعيدة ليجلب مواد النحت وأفضل الأحجار التي يستخدمها في عمله...

بل إن إبراهيم نفسه، كان قد رأى بعض آلهة البلدان المجاورة، عندما دخلت مدينته حربًا معها، وانتصرت عليه، ورجع الجيش منتصرًا يقوده الملك محملاً بالغنائم والكنوز، وهو يجر معه الملك المهزوم، ومعه آلهته المهزومة والناس ترشقه وترشقها بالحجارة، لم يهتم إبراهيم يومها بالكنوز، ولا بالملك المخذول، لكن كان كل اهتمامه منصبًا على تلك الآلهة المهزومة التي أسرت مع ملكها وأن يعرف هل يمكن أن تكون آلهة مختلفة عن تلك التي يعبدها الناس في مدينته ؟.

هل يمكن أن تكون آلهة حقًا؟.

لكنه كان يجده أكثر قبحًا وأقل إتقانًا من تلك التي يصنعها والده، «إنها لا تصلح حتى أن تكون لعبًا للأطفال»... كل تلك الآلهة في البلدان التي كان التجار يذهبون إليها، كانت تبدو مثل آلهة مدينته، أسخف منها أو مثلها، أجمل أو أقبح، لكنها جميعًا كانت متشابهة... كل رجال الدين في كل تلك البلدان كانوا متشابهين أيضًا، كلهم لديهم كروش مثل بطن امرأة حامل في شهرها الأخير، أما سواهم من الناس فيزدادون هزالاً وجوعًا وفقرًا...

كل شيء كان يبدو متشابهًا ومشابهًا لما يحدث في مدينته...

لكن لا بد أن يكون هناك من صنع هذا العالم......

لابد أن يكون هناك آلهة حقيقية، تستحق أن تعبد.....

ولا تكون «مجرد لعب أطفال».

* * * *

وليمة العيد والطّباخ غائب

بعد فترة قليلة حل موسم عيد الخصب فاحتفل الجميع بجني الثمار وصلُوا لآلهة البساتين، واحتفلت المدينة كلها، وأقام والده، وليمة كبيرة - على عادته - دعا إليها الأقارب والجيران والأصدقاء...

كانت جدته في كل وليمة هي المسؤولة عن إعداد الطعام وتجهيزه، تقرر كل شيء في كل تفصيل، ابتداء من تحديد أنواع الأطعمة التي سيتم إعدادها، إلى اهتبار الذبيحة وطريقة ذبحها وتقطيعها، إلى اختيار القدور التي سيتم الطبخ بها، إلى الحطب الذي سيتم إشعال النار فيه، إلى كمية الملح ونوعية التوابل، وكم من الوقت يجب أن يُـترك الماء على النار قبل أن يوضع اللحم فيه...

كل شيء، كانت تقرره الجدة، كانت تجلس على كرسيها العالي، تتأمّـر على نساء العشيرة، وتستغل ذلك، وتتمادى فيه، وهي تتلذذ بإصدار الأوامر...

«كم مرة علمتك هذا يا عزيزتي يا أم إبراهيم، لا تضعي الملح كله مرة واحدة، اخلطيه بالتدريج، واخلطيه جيدًا وبقوة».

كانت تقول ذلك لوالدة إبراهيم ثم تحدث نفسها بصوت مسموع للجميع: «هذه المرأة لن تتعلم أبدًا، لا أدري لماذا اخترتها زوجة لابني»، ثم تلتفت لابنتها، عمة إبراهيم، فتقول لها، بصوت

خفيض: «مزيدًا من البهار، ولا تفضحينا» ثم بصوت عال: «أحسنت يا ابنتي، هكذا النساء وإلا فلا».

ثم تصيح بإبراهيم أو أي من الصبيان الذين يساعدون النساء: «مزيدا من الحطب هنا»، «قليلًا من الملح».

وهكذا كانت الجدة تتذوق إصدار الأوامر والتعليمات وتتلذذ بها كما تتذوق الطعام وتتلذذ به.

ورغم ضيق الجميع بأوامر الجدة، إلا إنهم كانوا يعتبرون أن الطعام الذي تشرف على إنتاجه الجدة هو الألذ من بين كل الأطعمة التي سبق أن تذوقوها، كانت القدور تفرغ تمامًا بعد الوليمة، أما البطون فتمتلئ من قدر ما كان الطعام شهيًا...

* * * *

ولكن في هذا العيد، اشتدت آلام المرض على الجدة، ولم تتمكن من مغادرة فراشها، ولم تتمكن من توجيه الأوامر والإرشادات... وكان على النسوة المشاركات في الوليمة أن يقمن بالطبخ، دون توجيه من الجدة...

حاولت والدة إبراهيم أن تقوم بدور الجدة في التحكم بالأمور، لكن عمة إبراهيم اعتبرت ذلك تجاوزًا على إمكاناتها وخبراتها بالطبخ التي كانت الجدة نفسها تشهد بها وتروّج لها...

ولم تستسلم والدة إبراهيم بسهولة للعمة، فالبيت بيتها؛ ولا يحق لأي واحدة من النسوة أن تتدخل في شؤون مطبخها، وهكذا كانت والدة إبراهيم تصر على مخالفة رأي عمته، وكذلك كانت العمة تفعل، وبين حين وآخر كانت واحدة من الجارات تقدم رأيًا مخالفًا.

لقد بدأ هذا منذ بداية الإعداد للطعام واختيار القدور المناسبة إلى كل تفصيل من تفاصيل الطهو... واحدة تقول: لا يجوز الطبخ فيه في هذا العيد لأنه سبق وطبخ فيه عند الإله (أنكي) الغيور والذي لا يقبل مشاركة مع أحد، وواحدة تقول: إن الحطب المُعَدّ لن يشتعل جيدًا، وأخرى تقول: إن الخروف الذبيح كان هزيلًا، وأخرى تعلق: إنه كان متقدمًا في السن، وتندفع ثالثة لتقول: إنه كان صغيرًا جدًا. واحدة تقول: إن كمية الملح في الطعام كبيرة، فتسرع وتضع مزيدًا منه لتغيظها. واحدة تقول: إن الطعام نضج وأخرى تسرع فتزيد الحطب تحت القدر... واحدة تزيد من الماء في القدر، وأخرى تركض فتزيد من التوابل.....

وكانت النتيجة لهذا كله، أن خرج طعام الوليمة سيئ الإعداد، ولا يكاد أحد يسيغه، وبقيت القدور مَلأى والبطون خاوية... كان نصف الطعام نيئًا لم ينضج، ونصفه الآخر تجاوز النضج إلى الاحتراق، نصف الطعام كان خاليًا من الملح، والنصف الآخر كان شديد الملوحة كما لو كان ملحًا مطهوًا على النار.

* * * *

أخرجت النسوة أمام الرجال الذين كانوا ينتظرون الطعام، وألقت كل واحدة منهن اللوم على الأخرى، وتعالى الصياح بينهن حتى وصل إلى مسامع الجدة النائمة في فراشها، والتي حدست ما حدث، وأرادت أن تحرج الجميع لتثبت أنها الأقدر على الطبخ

«قل لأمك وعمتك، هل نسينني؟ أنا هنا وحدي ولا أحد يلبيني، أنا جائعة منذ الصباح وأنتم تأكلون ونسيتموني جميعًا. هل تريدون أن أموت جوعًا، قل لأمك أن تأتيني بالطعام حالًا قبل أن تمسخها الآلهة قطة جرباء جزاء إهمالها».

ذهب إبراهيم إلى والدته وهو يعرف أن الخبر الذي يحمله لن يكون سارًا.

بهتت والدة إبراهيم مما نقله إبراهيم، فقد كانت نسيت أن الجدة ولسانها بالمرصاد لما حدث في أمر الطعام.

حاولت والدة إبراهيم أن تلملم الموضوع، فوضع طبقًا من الفاكهة في يدي إبراهيم وقالت له: «قل لجدتك إن معدتها كانت تؤلمها طوال الليل، وسيكون الطعام ثقيلًا عليها وعلى صحتها. الفواكه أخف وأكثر فائدة».

أمسكت جدته بطبق الفواكه ورمت به على الحائط أدهشت إبراهيم، وقالت: «ماذا؟ فواكه؟. اشهد يا إبراهيم اشهد، أنا أموت هنا جوعًا ووالدتك ترسل لي بطبق الفاكهة هذا كما لو كنت طفلةً صغيرة السن». ثم قالت وقد فارق المرض وجهها تمامًا: «اذهب وقل لها أريد طبقًا من الطعام».

ذهب إبراهيم مرة أخرى إلى أمه، وهو يعرف أن الموقف يزداد تأزمًا، وأخبرها بما فعلته جدته بطبق الفواكه وما أوصته أن يقول، وازداد رعب أمه وهي تسمع كلام الجدة، لكنها فكرت قليلًا ثم قالت لإبراهيم: «اذهب وقل لها: إن الإلهة (نين) كانت هنا وأوصتنا جميعًا ألا ندعك تأكلين إلا الفواكه من أجل الحفاظ على صحتك...».

أجاب إبراهيم على الفور بمكر: «ولماذا لا تذهب الإلهة (نين) نفسها إلى جدتي لتخبرها بذلك؟. سيكون ذلك مقنعًا أكثر»

صرخت أمه على الفور: «إبراهيم!. كُفّ عن ذلك، هل تراني هانئة لأجيب عن أسئلتك، اذهب وأخبرها ما قلته لك على الفور».

ذهب إبراهيم وهو يقول في نفسه: إن جدته أيضا ستقابل بعض الآلهة حالاً.....

احمرّ وجه الجدة مما سمعت من إبراهيم وتغيرت ملامحها وأخذت تصرخ: «اذهب لأمك وقل لها: إن الإله (آن) والإلهة (آنتو) وكل أولادها وأقربائها وجيرانها من الآلهة كانوا هنا الآن وأخبروني أن أنزل إلى أمك حالًا وأقطّعها قطعًا وأضعها في القدر على النار إذا لم ترسل لي حالًا طبقًا مليئًا بالطعام».

رجع إبراهيم إلى أمه وهو يعرف أن من الأفضل لوالدته أن تعطي جدته ما تريد لأنه لا أسوأ من التهديدات التي تطلقها جدته بكل الأحوال...

أدركت والدة إبراهيم أن الجدة مُصرّة، وأنه لا مفرّ من مواجهة الموقف، فأخذت طبقًا بعد ما ملأته بما تصوّرت أنه أفضل ما طُبخ من طعام، وذهبت به إلى سرير الجدة وهي ترتجف من الخوف....

أخذت الجدة الطبق وهي تنظر إلى والدة إبراهيم بشَرّ، وضعت أول لقمة في فمها، ولم تمضغها لحظات، وتغير لونها وسرعان ما أخرجت اللقمة من فمها بتقزز.

التفتت الجدة إلى أم إبراهيم وقالت لها: «ما هذا الطعام؟ لم أطلب تذوق الطعام الذي ستعطيه للدجاج».

ثم قالت بعدها: «وأظن أن الدجاج لن يأكله أيضًا، عليك أن تعطيه شيئًا آخر».

قالت الجدة وهي توحي أن صبرها نفد: «أين طعامي الآن؟».

قالت والدة إبراهيم، بصوت مرتجف، غير مسموع... «هذا...

هـ... و... ال... ط... ع... ا... م».

«أي طعام تقصدين؟». قالت الجدة وهي تتكلف عدم الفهم...
«هذا». أشارت الوالدة وهي ترتجف بشدة إلى الطبق أمام الجدة.

«هذا هو الطعام الذي أعددته للوليمة ؟». سألت الجدة بوضوح.

لم تجب والدة إبراهيم... فقط هزت رأسها بعلامة الإيجاب.

انفجرت الجدة بغضب كالبركان. انهمر سيل الكلمات العنيفة الغاضبة من فمها كما لو كان مطرًا شديدًا، واستمر ذلك بعض الوقت، بينما أم إبراهيم تحاول أن تجد الأعذار والجدة ترفض أن تستمع إليها...

بقي إبراهيم يهدئ جدته، التي هدأت فعلًا بالتدريج...

وعندما كان إبراهيم يخرج من غرفتها سمعها تحدث نفسها: «فسدت الطبخة من كثرة طباخيها».

* * * *

فسدت الطبخة من كثرة طباخيها

ظلت كلمات الجدة تتردد في أذن إبراهيم: «فسدت الطبخة من كثرة طباخيها!».

هذا صحيح. عندما كانت الجدة - وحدها - تشرف على الطبخ، كان الطعام الناتج لذيذًا وشهيًا، تمتلئ البطون به وتفرغ القدور...

كانت الجدة وحدها هي من تقرر أي شيء.

ولكن عندما حلت أمه وعمته وكل الجارات محل جدته في الإشراف على الطعام، تضاربت آراؤهن، ودخل العناد بينهن، وكانت النتيجة أن الطعام فسد، وأن القدور ظلت ملأى، والبطون بقيت خاوية.....

«فسدت الطبخة عندما كثر طباخوها»...

ظلت الكلمات تدوّي في أذن إبراهيم...

* * * *

كان يمكن للحادثة أن تمر، لو كان رأس إبراهيم مثل بقية الرؤوس في مدينته، التي عرفنا أنها لا تعمل بشكل جيد، لأن (أدوات الربط) عند ساكنيها إما عاطلة، أو أنهم لا يعرفون كيف يستعملونها...

كان يمكن لتلك الحادثة أن تمر بإبراهيم، كما مرت بِالآخرين، لكن رأس إبراهيم كان مختلفًا كما عرفنا...

رأس إبراهيم كان يجيد الربط، ولم تكن الحوادث والمشاهد تمر أمامه دون أن يربط بينها ويجد في هذا الربط والرابط أجوبة عن تلك الأسئلة التي تدور في خلده...

سجل إبراهيم ما قالته جدته في رأسه، وأخذ يقلِّبه ويقلِّب رأسه، ويقلِّب المشاهد الأخرى، يقلِّب مشاهداته في الكَون، يراجع تساؤلاته الكثيرة...

كان ما قالته جدته صحيحًا جدًا. وعندما كان إبراهيم يستخدم أدوات الربط فيه كان يجد أن ما قالته جدته يصلح في مواقف

أخرى، بدأ إبراهيم يكتشفها بالتدريج...

فكر إبراهيم: إن الطبخة فسدت لكثرة الطباخين، وكذلك كان نحت التماثيل والآلهة سيفشل لو شارك والده نحاتون آخرون في نحت تمثال واحد... كان الأنف سيكون كبيرًا مقارنة بالأذن والعين وستكون النتيجة مضحكة لإله لن يعبده أحد ولن يشتريَه أحد.

وفكر إبراهيم أن تلك السفن التي ترسو على الميناء في الفرات، ستغرق لو كان فيها أكثر من ربان واحد، يحدد مسارها ويقرر متى يحرك دفتها ويعدل شراعها...

فكر إبراهيم أن كل ما هو (صحيح) و(غير فاسد وغير فاشل) في العالم يحتاج إلى (واحد): طباخ واحد. نحات واحد. ربان واحد.

* * * *

استمر إبراهيم في استخدام (أداة الربط) في رأسه.....

إذا كان الطعام يحتاج طباخًا واحدًا لكي يكون جيدًا، وإذا كانت السفينة تحتاج ربانًا واحدًا لكي لا تغرق، وإذا كان التمثال يحتاج نحاتًا واحدًا لكي لا يكون قبيحًا.....

أفلا يحتاج إذن هذا العالم إلى إله (واحد) يقيم أمره؟.

* * * *

إنه واحد...!

تذكر إبراهيم شجار أمه وعمته وعنادَهن، وتساءل: لو كان هناك في الأرض آلهة عديدة، لتنازعت كما فعلت أمه وعمته، ولصارت الأرض كلها ملعبًا لشجارهم، ولفسدت الأرض كما فسد طعام الوليمة... عندما كثر الطباخون.....

خرج إبراهيم في سكون الليل. تأمل في الأشجار العالية، أنصت لصوت النهر وهو يجري بهدوء، نظر طويلًا إلى القمر. وإلى النجوم المتلألئة بعيدًا. راقب الغيوم وهي تنسلّ بخفّة. واستمع إلى صياح الديك يعلن للعالم بدء يوم جديد...

وشاهد نور الشمس وهو يزيح ظلمة الليل بالتدريج...

فكر إبراهيم بذلك كله. وعملت أدوات الربط في رأسه بشكل جيد... ظلت تعمل على كل ما شاهده وكل ما سمعه منذ أن كان يلعب بالآلهة ويعدّها دُمى صغيرة، إلى أن تنبّه أن كروش رجال الدين مرتبطة بجوع الناس وعبادتهم لتلك التماثيل...

تأمل إبراهيم في الليل وسكونه، والنهار وحركته... وقال في نفسه: «هذا العالم لم تصنعه آلهة عديدة، لأنها كانت ستتحارب فيما بينها وتفسده»...

أحس أنه على وشْك أن يقوم بأهم اكتشاف في حياته، أحس أن مصباحًا قد أنير في رأسه...

قال إبراهيم في نفسه: «هذا العالم لا يمكن أن يكون قد خُلق إلا من قِبَل إله واحد».

كرر الجملة في نفسه مرة أخرى ثم أعادها بصوت عال ليتأكد

مما قال: «إله واحد». ظل يقول وهو لا يصدق أنها المرة الأولى التي تخطر على باله فيها هذه الفكرة. كيف لم يتنبّه لها من قبل؟. كيف لم يفكر بها؟

أحس إبراهيم براحة عجيبة. أحس أن الفكرة هي الجواب لكل تساؤلاته. أحس أنه وصل أخيرًا لما كان يبحث عنه دومًا...

قال في نفسه: «إنه إله واحد».

«إله واحد...» قالها بصوت عال...

ثم أخذ يصرخ بأعلى صوته، بوجه ذلك الليل وهو ينهزم أمام النهار...

«إله واحد...» ...«إله واحد...»...

وكان الصدى يردد معه... «واحد»... «واحد».

* * * *

أراد إبراهيم أن يوقظ أهل مدينته النيام من نومهم. أراد أن يوقظهم من غفلتهم. أحس أنهم كانوا دومًا نائمين، وليس الآن فقط، وأن ما اكتشفه الآن يجب أن يوقظهم...

كان إبراهيم قد وصل في تجواله إلى خارج المدينة، ولكنه أخذ يركض وهو يصرخ: (واحد) (واحد)، دخل الأزقة والشوارع التي كانت لا تزال فارغة، مر بها مسرعًا، وهو يريد أن يدق على الأبواب ويخبر الناس واحدًا واحدًا أن تلك الآلهة العديدة التي يعبدونها لا تدير شؤون العالم حقًا، ولم تصنعه حقًا...

وإنما هو إله واحد...

كان يلهث راكضًا ليصل إلى بيته هو، كان يريد أولًا ان يخبر والده بما اكتشف. ولو وجده نائمًا لأيقظه هزًا ليخبره أنه إله واحد وليس كما كانوا يظنون...

وصل إبراهيم مسرعًا إلى بيته بعد طول ركض ولهاث. دخل باحة الدار مسرعًا، وهو يريد أن يتوجه فورًا إلى غرفة والده، لكنه وقف في الباحة، لم يكن والده نائمًا، كان قد استيقظ من نومه، وجلس ليصلي على عادته في باحة المنزل. عندما دخل إبراهيم، كان راكعًا أمام تلك التماثيل التي صنعها بيديه، كان هناك خمسة منها بقرب اللوح الذي يصور جده الأكبر، وهو راكع أمامها.

ظل إبراهيم يلهث، بل ازداد لهاثه. كان صدره يصعد ويهبط بشدة، وقلبه يدق بسرعة، كما لو أنه لم يتوقف عن الركض.

كان والده يصلي بحرارة وخشوع لتلك التماثيل السخيفة، وكان هو قد جاءه راكضًا من خارج المدينة ليقول له: إن كل ما فعله طوال حياته كان سخافة، وإنما هو إله واحد...

ظل إبراهيم يلهث ورأسه يربط بين المشاهد مرة أخرى، قال له رأسه: إن الأمر لن يكون سهلًا. وإن والده لن يصدق ما يقول، ولن يقتنع بما يقول، بل أكثر من هذا، قد يغضب بل وقد ينفجر غضبًا...

ازداد لهاث إبراهيم، تأمل والده وهو راكع أمام التماثيل، أحس بالشفقة نحوه، بل فجأة أحس بذلك نحو العالم كله، بالذات نحو اسرته، أحس انهم عميان، وأنه المبصر الوحيد بينهم، شعر بالشفقة كما أنكم تشعرون بها نحو أعمى يريد أن يعبر الشارع بين سيارات مسرعة، وكما ستهبّون لمساعدة هذا الأعمى، أحس

إبراهيم أنه يهب أن يساعدهم؛ يساعد والده وأسرته وكل أهل مدينته. أن يخرجهم من العمى الذي هم فيه...

ظل إبراهيم يلهث، وقد فهم الآن أن مهمته أصعب، ظل يتأمل والده الذي كان يدعو التماثيل أن ترزقه. شعر أن والده يحتاجه أكثر من أي وقت مضى. ولكنه كان يعلم تمامًا أنه كان سيفقده لو أخبره بما اكتشف.

انتهى والد إبراهيم من الصلاة، التفت إلى إبراهيم وقد فوجئ بوقوفه في هذا الوقت.

قال الوالد: «إبراهيم؟ ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟».

لم يجب إبراهيم. ظل ساكتًا وهو يلهث.

قال الوالد من جديد: «هل تريد شيئًا؟».

مرة أخرى ظل إبراهيم ساكتًا، كان يريد شيئًا واحدًا، لكنه كان يعلم أنه سيخسر والده لو قاله له.

«إبراهيم!. ما بك؟» «هل تريد أن تقول شيئًا؟»...

هـزّ إبراهيم رأسه دون أن ينطق. كان لهاثه مسموعًا أكثر من أي كلمة يريد أن يقولها...

قال الأب: «ماذا تريد أن تقول؟».

قال إبراهيم بصعوبة: «أردت أن أقول...» ثم سكت مجددًا بينما نظر الأب لابنه بدهشة...

«أردت أن أقول... إنني» وسكت مرة أخرى، وهو يحاول أن يجد كلمات تعبر عمّا يجول في داخله...

قال والده وقد بدأ صبره ينفد: «ماذا يا إبراهيم؟»... «أنت ماذا يا إبراهيم؟»...

اندفع إبراهيم إلى حضن والده وهو يقول: «أردت أن أقول إنني أحبك جدًا يا أبي»...

وانفجر في بكاء مرّ.

* * * *

في مدينة العميان

في اليوم التالي أخذ إبراهيم يسير في المدينة وشوارعها وأسواقها وبساتينها القريبة، وهو يرى كل شيء بعين جديدة.. لقد شعر الآن أنه قضى حياته وكأن على عينيه (خرقةً من قماش) كانت

تمنعه من الرؤية، وتحجبه عن النظر، كان إبراهيم بأسئلته يحاول أن يختلس النظر من تحت الخرقة، كان يحاول أن يزيحها قليلًا ليعرف ماذا هناك...

لكنه اليوم يحس للمرة الأولى أنه قد تمكن من إزاحة تلك الخرقة، وأنه يرى العالم بوضوح - من دون حجاب - أول مرة...

صار يرى الناس وهم يسيرون في الشارع وكأنّ على أعينهم تلك الخرق التي تمنعهم من الرؤية.

ولكنهم مع ذلك لا يحاولون أن يزيحوها لأنهم لا يعرفون أنها موجودة... كانوا يتصورونها جزءًا من أعينهم، من رؤوسهم، من جلودهم... ولذلك لم يفكروا مرة أن ينزعوها..

والآن ها قد نزعها إبراهيم عن عينيه، صار يرى كل شيء واضحًا،

وصار عليه أن يخبر الآخرين كيف ينزعون تلك العصابات عن أعينهم... حتى يروا ما يرى...

* * * *

انتبه إبراهيم للمرة الأولى، بعد أن عرف أنه (إله واحد)، أن كل ما في هذا العالم من صنع هذا الإله؛ لأنه متناسق ومنسجم معه، كل شيء في العالم يبدو ملائمًا لشيء آخر، بالضبط مثل القفل والمفتاح، كل شيء في هذا العالم يبدو أن لديه مفتاحًا في شيء آخر...، المطر ينزل ليس حسب رغبة إله المطر، أو إله منفرد من ضمن عشرات الآلهة، بل ينزل المطر من أجل أن ترتوي الأرض فتنمو البذرة، وتخضر الأرض، ليس من أجل إله الخصب أو الثمار، أو إله الربيع، وإنما من أجل البذرة ترتوي بالماء وتنمو وتنتج سنابل يصير قمحًا يأكله الناس...

لو كان إله المطر مسؤولًا عن المطر، وإله الربيع مسؤولًا عن نمو الثمار، وإله الخصب مسؤولًا عن استجابة التربة لفسد المحصول؛ إذًا لاختلفت هذه الآلهة فيما بينها... ولمات الناس جوعًا...

لكن إلهًا واحدًا، ينظم كل شيء، ويرتب كل شيء، هو الذي ينزل المطر، ويسلسل الأمور واحدًا تلو آخر، واحدًا مرتبطًا بالآخر، إلى أن نصل إلى ذلك القمح الذي يسُدّ جوعنا...

بدا العالم كله لإبراهيم مثل (طبخة جيدة)، لا يمكن أن يكون طباخها إلا واحدًا...

وكان عليه أن يخبر الآخرين بذلك...

* * * *



فكر إبراهيم طويلًا في الصعوبات التي تواجهه إذا أراد إخبار الناس بأنه إله واحد هذا الذي خلق العالم كله، بدلًا من ذلك العدد الكبير من الآلهة الذي يؤمنون به...

فكر بجدته المريضة. لقد تعودت أن تصلي لإله (...!) من أجل آلام ظهرها، ولإله (...!) من أجل آلام بطنها... لقد اعتادت على ذلك، وإذا لم تصل لهما فإنها تعتقد أن آلامها ستزيد حتى الموت...

فكر بوالده، إنه يصلي كل صباح لآلهة، يصلي لواحد منها حتى يزيد رزقه، ويصلي للآخر حتى يسدد يده في أثناء صنع التماثيل، ويبعد تلك الارتجافة التي أزعجته في السنة الماضية، ويصلي لإله آخر حتى يهدي إبراهيم ويجعله يكفّ عن تساؤلاته...

كل الناس في مدينته كانوا قد (اعتادوا) أن يطلبوا كل حوائجهم من آلهة مختلفة... كانوا قد تعلموا ذلك منذ طفولتهم، وتركبت رؤوسهم بهذه الطريقة...

«لن يكون سهلًا أبدًا تغيير ذلك» قال إبراهيم ذلك في نفسه، وأخذ نفسًا عميقًا...

* * * *

ذهب إبراهيم إلى المعبد في المساء، لم يؤمن يومًا بتلك الآلهة لأنه لم يكن يصدق أنها آلهة. لم يكن يهتم أو يكترث بها...

لكنه الآن صار يكرهها. يعدّها (حاجزًا) يمنع الناس من معرفة الحقيقة. صار يعدّها جزءًا من تلك العصابة التي على عيون الناس، لا بد من إزاحته لكي يتمكن الناس من رؤية الشمس...

نصيحة للكهنة: لا تتورطوا مع إبراهيم

قبل أن يدخل إبراهيم، لاحظ وجود رجال الدين أمام مدخل المعبد. كانوا يُعلِّمون مجموعة من الفتية الصغار الذين يتدربون ليكونوا رجال دين في المستقبل.

كانوا في مثل سنه أو أصغر أو أكبر قليلًا، وكان يعرف بعضَهم جيدًا فقد كانوا يسكنون قرب منزله، وكثيرًا ما كانوا يشاركونه اللعب بالآلهة، ومعاملتها مثل دُمى صغيرة، لكنهم الآن يتدربون ليصيروا رجالًا للدين ومن خَـدَمة المعبد... (إنها مهنة مُربحة)، فكر إبراهيم في نفسه وهو ينظر إلى الكروش الممتلئة لرجال الدين.

انتبه واحد من رجال الدين لإبراهيم وهو يهمّ بالدخول، فتحرش به: «إبراهيم!. انظر إلى أصدقائك لقد كبروا وكفوا عن العبث، وأنت لا تزال في مكانك. متى تصبح مثلهم؟.متى تهديك الآلهة لخدمتها يا إبراهيم». قال هذا، وصوته يكاد يخرج من أنفه، وهو يمد عنقه في أثناء الكلام...

قال إبراهيم وهو يقلد صوته ويخرجه من أنفه ويمد عنقه كما يفعل: «لا أدري، لماذا لا تسأل الآلهة نفسها؟».

قالها بالطريقة الماكرة نفسها التي كان يتحدث بها رجل الدين.

«ألم تقل الأسبوع الماضي إنك سألتها عن موسم حصاد السنة القادمة، وإنها أجابت بعد أن قدمت لها سبعة جمال وعشرين خروفًا وبعض الحُلي الذهبية التي أخذتها من الناس طبعًا، أجابتك إنه سيكون موسمًا جيدًا»... «ألم يحدث ذلك؟» قال إبراهيم بالصوت نفسه وهو يتعمد إحراج الرجل وكرشه...

«آن، نعم نعم» أجاب رجل الدين الذي تورط بالتحرش بإبراهيم، وقد بدأ بالارتباك وعاد عنقه إلى الوضع الطبيعي.

أجاب إبراهيم: «إذن لماذا لا تسألها أيضًا عن هدايتي...

لم لا تقول لها، إن كانت لا تعرف بعد: إن هناك فتى مشاكسًا وضالًا في المدينة اسمه إبراهيم، فلماذا لا تهديه لعبادتها وطاعتها؟».

ارتبك رجل الدين واحمرّ وجهه، بينما تدخل صديقه الطويل: «ما هذا الذي تقوله يا إبراهيم؟. الآلهة مشغولة بأمور أهم بكثير، وليس لديها الوقت للتفاهات» بدا مقتنعًا بما يقول.

أجاب إبراهيم بصوت بدا عليه الاستغراب: «عجبًا إذن، كيف وجدَت الوقت لهدايتهم إذن» وأشار إلى أقرانه ممن يتدربون على أن يصيروا رجال دين.

صرخ أكثرهم سِمنة: «ما هذا يا إبراهيم؟ كيف يمكن للآلهة أن تهديك وأنت سيئ الأخلاق هكذا؟».

أجاب إبراهيم وهو يعرف أنهم سقطوا في الفخ: «في الواقع أنا أعرف السبب».

«فالإله آن مهتم بهدايتي جدًا» قالها إبراهيم وهو يتصنع الخشوع. اهتم رجال الدين بما قال وسألوا: «صحيح؟».

أجاب إبراهيم: «نعم، المشكلة هي أن الإلهة (آنتو) ترفض ذلك وتقول له: إن إبراهيم لا فائدة منه، فلا تتعب نفسك لأجله، والإله (إنليل) يرى أن الأمر لا يستحق التفكير فيه، أما الإله (أنكي) فهو يعتقد أنني أستحق التقطيع والرمي للأسود في العالم السفلي...».

«وهكذا فإن الآلهة لم تتفق بشأن هدايتي، ولذلك بقي الوضع على ما هو عليه».

لم يقل أي منهم أي كلمة للرد عليه، لم يعرفوا ما يقولون لأن إبراهيم فاجأهم تمامًا...

لكن إبراهيم استمر: «في الحقيقة، إني مستغرب تمامًا كيف أن الآلهة تتفق على هداية شخص معين».

«أقصد أنّ لكل منها رأيها الخاص ورغبتها الخاصة، كيف إذن يَصلون لرأي محدد»

أشار أكبرهم سنًا إلى أنفه، وقال وهو يمد عنقه: «إبراهيم! إنني أشم رائحة السخرية في كلامك. إياك أن تهزأ بالآلهة وأنت في معبدها؟».

أجاب إبراهيم: «هل تقصد أنني يمكن أن أهزأ بها إذا لم أكن في المعبد؟».

صرخ الرجل: «إبراهيم! كف عن هذا واخرج حالًا، وسأعرف كيف أخبر والدك عما قلته، وسيعرف هو كيف يربيك».

أدار إبراهيم ظهره ليخرج خطوتين فقط، واستدار مجددًا، قال بصوت فيه تحدٍ : «هل فكر أحدكم يومًا، ولو حتى يومًا واحدًا، أو لحظة واحدة، أن هذا العالم قد يكون فيه إله واحد فقط؟».

سكتوا قليلًا عندما سمعوا ما قال، كانوا يسمعون هذا الكلام للمرة الأولى، وسرعان ما انفجروا بالضحك، تمرغ اثنان منهم على الأرض من شدة الضحك. كانت فكرة (الإله الواحد) تبدو غريبة عنهم، خاصة في هذا المعبد الذي يمتلئ بالآلهة، كانت رؤوسهم قد تركبت على الإيمان بعدد كبير من الآلهة. فكان

في عبارة «إله واحد» من الغرابة ما يدعو إلى الضحك.

قال واحد منهم وهو يكاد يغمى عليه من شدة الضحك: «ل... ك... ن... يا إبراهيم...» «كيف... يمكن لإله... واحد... أن يدير هذا العالم كله...». قالها وهو يكاد يختنق.

«ألا ترى كيف أن الآلهة كلها مشغولة بتدبير العالم» قال آخر وقد احمرّ وجهه من الضحك...

«فكيف يمكن لإله واحد أن يفعل كل ما تفعله الألهة؟».

قال إبراهيم بصوت واضح: «أنا أقول لك كيف».

«لأنه لن يكون إلهًا مزيفًا...».

«لأنه سيكون إلهًا حقيقيًا...».

واستدار منصرفًا. تبخر الضحك على الفور عندما قال إبراهيم جملته الأخيرة. ساد الذهول .

وتبادل الجميع النظرات بينما كان إبراهيم يبتعد... ثم ساد الغضب.

* * * *

عندما عاد والد إبراهيم إلى البيت في مساء ذلك اليوم، كان إبراهيم يتوقع أن يناديه ليضربه بالعصا، أو يحبسه منفردًا في القبو، أو يؤنبه بشدة على الأقل...

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. كان والد إبراهيم لطيفًا معه، وقد سأله عن حاله عدة مراتٍ. لكن إبراهيم لاحظ أن والده كان شاردًا وهو يفكر...

كذلك لاحظ أن والده انفرد بوالدته وجدته وحدثهما بصوتٍ منخفض، وقد سكتوا جميعًا عندما مر إبراهيم بقربهم...

لاحظ إبراهيم أن والدَته وجدّتَه تغيرتا معه بعد هذه المحادثة (السريّة) مع والده، وإن كل من في البيت صار يُدلّلـه كما لو كان ضيفًا... سألوه عن صحته وكيف حاله وماذا يشعر وماذا يحتاج بقدر عدد الآلهة في المعبد...

وعندما أوى إلى الفراش؛ جاؤوا جميعًا ليودّعوه واحدًا تلو الآخر ويطمئنّوا عليه كما لو كان سيخوض معركة ضارية في ساحة حرب...

استغرب إبراهيم مما يفعله أهله معه، لكنه قال في نفسه: إن ذلك أفضل بالتأكيد من العصا والحبس بالقبو مع الفئران...

* * * *

المريض الأكثر صحة من الجميع

في صباح اليوم التالي استيقظ إبراهيم من النوم متأخرًا وحده دون أن يوقظه والده كما في كل صباح ليذهب معه إلى العمل...

تعجب إبراهيم من ذلك وركض إلى والدته وهو يفرك عينيه، وقد خاف أن يكون مكروهًا قد أصاب والده، لكن والدته أسرعت تحتضنه وابتسامة عريضة وغريبة على وجهها: «كيف حالك يا حبيبي!. كيف أصبحت! هل نمت جيدًا؟»... ووضعت يدها على جبينه لترى إن كَان محمومًا، استغرب إبراهيم هذه الأسئلة وزاح يدها عن جبينه وسألها...

«أين والدي!».

أجابت الأم: «إنه في المتجر يا ولدي»...

سأل إبراهيم بتعجب...«ولِمَ لَمْ يأخذني معه؟».

قالت أمه بعطف شديد: «قال والدك إنه يمكنك أن ترتاح في البيت هذا اليومَ».

انتفض إبراهيم: «لكني لست متعبًا ولا أشعر بأي شيء سيئ»

تنهدت والدته ببطء، وقالت: «بلى يا حبيبي، أنت متعب ولكنك لا تعرف أنك متعب».

سألها إبراهيم وقد زاد استغرابه: «ما هذا الذي تقولينه يا أمي؟»...

لم تتحمل أمه الاستمرار في تصنع الابتسام، وانفجرت باكية هنا، بينما دخلت جدته تبكي مع أمه أيضًا...

«نعم يا صغيري، أنت مريض جدًا جدًا ولكنك تجهل هذا»...

«لا يا أمي»... صرخ إبراهيم: «أنا بخير» وأخذ يقفز ويركض بالغرفة ليثبت لها أنه بخير.

«انظري... انظري...»، وأخذ يقوم ببعض الحركات الرياضية: «أنا بخير»... «انظري...يدي، انظري رجلي».

استمرت والدته ومعها جدته في البكاء...وقالت والدته. «أنت لست مريضًا في جسمك يا ولدي» وأخذت تبكي بصوت عال..

قال إبراهيم وهو لا يفهم لم هذا البكاء: «أين إذًا يا أمي؟».

«أنت مريض في رأسك يا بني»... ودخلت في نوبة بكاء شديدة.

«رأسي؟!!» صاح إبراهيم متعجبًا. كان يعلم أنه بخير تمامًا، وأن رأسه بالذات هو أكثر شيء صحيح وسليم فيه...

اخذ يضحك رغمًا من بكاء أمه «اطمأني يا أمي إذا كان ذلك ما يزعجك، رأسي بخير تمامًا...».

استمرت والدته بالبكاء وقد أفزعها ضحك إبراهيم «نعم، يا إبراهيم، لا يمكنك أن تعلم ماذا حصل لرأسك، لأن رأسك قد أصابه مكروه شديد».

قال إبراهيم وقد بدأ يفهم: «ماذا أصاب رأسي يا أمي؟».

قالت أم إبراهيم من بين دموعها: «الآلهة يا بني، الآلهة...».

«ما بها الآلهة، وما دخلها برأسي أصلًا؟».

«الآلهة، انتقمت من مشاكستك الدائمة لها وتكرارك الاستهزاء بها... وأصابتك في رأسك بعفريت... أو شيطان ... أو شيء من هذا...».

وانهارت أمه باكية على صدر الجدة التي كان يبدو عليها تأنيب الضمير الشديد، لأنها كانت تهدد إبراهيم بأن الآلهة ستمسخه قردًا أو حشرة، وها هي تهديداتها تتحقق بطريقة أو بأخرى، بأن يُجَنّ إبراهيم أو يدخل عفريت في رأسه...

سأل إبراهيم وهو يتفكر: «هل ذهب أحد من رجال الدين لزيارة والدي أمس مساء في المتجر!».

صعقت والدته. بدى لها أن معرفة إبراهيم بهذا الأمر(السريّ) دليل قاطع ونهائي على وجود شيء مختلف سيئ في رأس ابنها... هزت رأسها بالإيجاب ولم تنطق.

«ذهبوا إذن وأخبروه أن الآلهة أخبرتهم أني مصاب بعفريت في رأسي؟».

«نعم نعم». هزت الأم رأسها موافقة. «لقد جاءهم الإله شخصيًا في المنام، كل واحد منهم، وكانت معه الإلهة (آنتو) والإلهة (نين) وكذلك الإله (نرغال)»... سكتت قليلًا لتترك أثرًا لما ستقوله، وخفضت من صوتها وهي تقول: «ولقد ذكرتك الآلهة بالاسم!».

قال وهو يتصنع أنه مهتم جدًا ومستغرب جدًا، وبصعوبة تمكن إبراهيم من كتم الضحك: «بالاسم!».

قالت الأم وقد عادت تبكي: «نعم ذكرتك بالاسم»...

«لعلها أخطأت في الاسم أو في العنوان، هناك إبراهيم آخر في الحي المجاور. لعل الآلهة أخطأت فيه... إنها مُشوّشة هذه الأيام بسبب الحصاد القادم كما تعرفي، إنها كثيرًا ما تخطئ في هذه المناسبات». قال إبراهيم وهو يتكلف الجدية، بينما كانت أمه تعدُ ما يقوله دليلًا على أن عفريتًا مشاكسًا وغير مؤمن بالآلهة سكن رأسه...

«هدتك الآلهة يا صغيري، لم يكن هناك في عائلتنا أبدًا من يتحدث عن الآلهة بهذا الشكل، كلنا متدينون وطيبون، ونقدم للآلهة كل احترام وتبجيل...».

«لعل الآلهة غفلت عن هدايتي إذن، ولم تتنبه إلى أني من هذه العائلة»، قال إبراهيم هذه التصرفات الغريبة في البيت منذ مساء أمس...

لقد ذهب رجال المعبد إلى والده ليخبروه أن عفريتًا أو شيطانًا

أو جنيًا قد (مسّ) إبراهيم في رأسه، وهو الذي يخبره أن يثير التساؤلات والشكوك حول الآلهة...

كانت هذه الطريقة أقوى من العصا التي قد يضربه بها والده، إذ أن الضرب سرعان ما ينسى، أو ساعات الحبس التي يقضيها في القبو منفردًا، فالقبو لم يكن سيئًا جدًا كمكان يلعب مع خياله وأفكاره، أما الآن وبهذه الطريقة الجديدة، فإنهم يروّجون كونه مجنونًا، أي أن كل ما سيقوله من الآن فصاعدًا... من موضوعاتٍ ونقاشات تثيرها هذه الأسئلة، سيكون لا قيمة له، فهو صادر عن العفريت أو الجني الذي في رأسه أو صادر عن شخص مجنون...

قال إبراهيم في نفسه: «إنها الحرب وقد بدأت...».

* * * *

أحكام عرفية وخطة للطوارئ

منذ ذلك اليوم، تغيرت حياة إبراهيم، وتغيرت معها كل أوضاع البيت، فلم يعد مسموحًا لإبراهيم أن يخلوَ بنفسه، ربما حتى لا يتحدث معه العفريت - كما يتصورون - وصارت والدته أو جدته تلازمه أينما ذهب...

كذلك تم وضع آلهة جديدة في كل ركن من أركان البيت، بعضها كان غريب الشكل وقبيحة بتعمد ربما لإخافة العفريت، علق إبراهيم في نفسه .

كذلك صار البيت مغطى بسحابة من دخان قوي الرائحة ينطلق من أركان البيت من (مباخر) خاصة، وكانت رائحةً يتصورون أن العفريت سينزعج منها فيغادر رأس إبراهيم والبيت ككله، لكن

شيئًا لم يغادر رأس إبراهيم بسبب هذه الرائحة، كل الذي حدث أن الدجاج الذي تربيه والدته قد أصيب بالاختناق ونفق بعضه، كذلك أخذت جدته تسعل بقوة حتى ظنت والدته أنها تموت في واحدة من نوبات السعال هذه...

الأغرب من هذا، أنهم صاروا يأتون - كل يوم تقريبًا - بشيخ عجوز يعزف على آلة موسيقية وتريّة ألحانًا في منتهى البشاعة والنشاز، يفترض أنها ستساعد على طرد هذا العفريت من رأس إبراهيم، والحقيقة أنها كانت من البشاعة بقدر أصاب الجميع بالصداع.

وكان والد إبراهيم يسرع بالخروج من المنزل ما إن يأتِ العجوز، ويبدأ بالعزف بألحانه القبيحة التي لا علاقة لها بجمال أو استرخاء...

كل هذه (الحملة) التي قادها أهل إبراهيم لم تكن لتنفع مع العفريت الذي في رأس إبراهيم. ذلك أنه لم يكن ثمة عفريت أصلًا.

وكان إبراهيم يتعمد أن يستمر في الجدل والتعليق على الآلهة، من أجل أن يثبت لهم أن كل ما فعلوه لم يُجدِ معه...

* * * *

وكان إبراهيم يلاحظ بين حين وآخر، أن والديه وجدّته قد تجمعوا وهم يتحادثون همسًا، فيحاول أن يلتقط بعض الكلمات من هنا أو هناك، فكان يسمع «متى تأتي...».

«قالت: إنها تحتاج إلى...»، «هل خبرتها مع العفاريت كافية...».

ففهم من كل هذا أن أهله يعدون العدة لاستقبال من سيقوم بعلاجه وإخراج العفريت الذي يتصورون وجوده في رأسه، ولم يستبعد أن يكون البخور والموسيقى وتلك التماثيل القبيحة كلها من إرشادات من ستأتي لعلاجه...

* * * *

«شيء في رأسي»...

أخذ إبراهيم يحاول أن يستدرج والدته ليعرف أكثر عن هذه السيدة التي ستأتي، لكن والدته بدت حريصة على عدم إخباره بشيء... على الأقل صمدت أمام أسئلته التقليدية...

لكن فضول إبراهيم لم يستسلم، وحاول مع والدته بطريقة يعرف أنها لن تستطيع الصمود معها...

قال لها: «أمّــاه»، «شيء» في رأسي يقول لي إننا سنستقبل «ضيفة» في نهاية الأسبوع...

صُعقت أمه. تصورت أنه يقصد العفريت الذي يحاولون إخراجه، وابتعدت عنه قليلاً، وهي تسأله بخوف: «... وماذا قال لك أيضًا هذا الشيء يا إبراهيم؟».

«قال إنها سيدة كريهة وجشعة وأن استضافتكم لها لن تُجدي».

قال إبراهيم وهو يحاول أن يستفز أمه لتتكلم أكثر ...

قالت أم إبراهيم بشرود: «هو قال ذلك؟».

قال إبراهيم: «نعم» وقال لي: «إن أهلك سينفقون مبلغًا هائلًا على ما لا نفع فيه»...

قالت الأم بنبرة شكَ: «نعم، هو مبلغ هائل وحقّ الآلهة، اضطر والدك للاستدانة منٍ رجال الدين، مما سيضطره لإعادة المبلغ مضاعفًا، فهذه السيدة المباركة لا تقبل الأموال إلا إذا خرجت من المعبد... إنها سيدة تقـيّة وتخشى الآلهة، والآلهة تحبها كثيرًا...».

فكر إبراهيم بما قالته أمه عن المبلغ الهائل الذي استدانه والده من رجال المعبد بالرّبا، وكيف أن هذه السيدة اشترطت أن تكون الأموال قادمة من المعبد... قال إبراهيم في نفسه، وهو واثق تمامًا: «مصالح هؤلاء متشابكة دومًا ورجال الدين في المعبد هم الذين أشاروا على والده أن يأتي بها تحديدًا...».

«قال لي هذا الشيء أيضًا، إن من أخبر والدي عنه، هو نفسه من أخبر والدي عن هذه السيدة...» كان هذا واضحًا تمامًا...

نظرت والدته إليه كما لو أنه كشف سرًا خطيرًا من أسرار الكون، تغير لون وجهها وارتجف فكّاها ويداها وهي تقول: «... هو عرف هذا أيضًا؟» ثم كأنها تحدث نفسها «إنه أخطر مما توقعنا ما دام يعرف الأسرار والحوارات التي بين والده وبين رجال الدين»...

قال إبراهيم بثقة: «هو يقول: أنها جشعة جدًا»... ويقول: «إن قلبه مكسور من أجل الأموال التي ستدفعونها لها...» قالها وهو يستدرج والدته...

قالت والدته: «يا حبيبي، السيدة الكاهنة تأتي من مكان بعيد في أعالي الجبال، وكلفة النقل عالية تمامًا، وهي سيدة تقية وزاهدة ولا تأخذ شيئًا لها، إنما مصاريفها كثيرة، والآلهة تريد قرابين كثيرة كما تعلم...».

«... نعم... أعلم...» تذكّر إبراهيم القرابين وهي تتحول إلى طعام في بطون رجال الدين... ماذا ستحتاج تلك التماثيل التي لا تشعر بشيء؟.

قال إبراهيم وهو يكتم ضحكه: «لكن الشيء في رأسي يقول: إن ما ستنفقونه سيكون بلا جدوى»...

«إنه حزين من أجلكم...»...

تبدلت ملامح أمه وقالت بغضب: «هذه هي المشكلة، قلت لوالدك ألف مرة أن يقول لها: لن ندفع قرشًا واحدًا مقدمًا، نرى النتيجة أولًا، وبعدها ندفع المبلغ كاملًا، لكنه رفض مناقشة الأمور، ولكُنّا وفّرنا أكثر، وما احتجنا إلى الاستدانة من الهيكل...» قالت والدته بعصبية.

قال إبراهيم وهو يحاول محاولته الأخيرة: «يقول الشيء: إنكم ستخسرون المال... لا داعي لجلب السيدة»...

قالت والدته: «فات الأوان...لقد دفع والدك المبلغ كاملًا لوكيلها في المعبد»...

قالت والدته بشيء من الحسرة: «وستأتي بعد يومين».

ثم استدارت إليه واحتضنته وهي تقول له: «لا تحمل همًا يا صغيري، لا يَغلوعليك شيء، كل ما نريده هو أن تُشفى... ويخرج منك هذا الشيء الذي في رأسك...».

«الشيء الذي في رأسي يُسلّم عليك يا أمي، وهو يقول: إنه لن يخرج منه، هو يقول : إني بخير ما دام هو في داخلي... وهو يقول: إنه يريد أن يدخل إلى رؤوسكم أيضًا، لأنكم لستم بخير ما دام هو ليس فيكم»...

دفعته أمه بخوف، وركضت إلى أقرب إله في الباحة وهي تبصق في صدرها خوفًا من هذا العفريت الذي تتصور أنه في رأس ابنها...

أما إبراهيم فلم يحتمل أن يكتم ضحكه أكثر، فانفجر ضاحكًا بجذل لفكرة أن يخرج «الذي في رأسه» ليكون في رؤوس الآخرين ويشفيهم من المرض الذي يجهلون أنه فيهم...

* * * *

مع اقتراب موعد وصول تلك السيدة، ازدادت الاستعدادات في بيت إبراهيم لاستقبالها... تم تحضير ثلاث غرف لها ولحاشيتها وخدمها الذين سيأتون معها، وتم فرشها بفرش جديد أثقل جيب والده المُـثقل أصلًا. كذلك تم التحضير لإعداد ولائم ضخمة للكاهنة وحاشيتها، فتم جلب بقرتين كبيرتين وأربعة خراف، وقطيع من دجاج، لكن ذلك كله لم يثقل جيب والده فقط، وإنما أثقل على أمه وجدته اللتين كانتا تتوتر أعصابهما في الولائم دائمًا...

وكانت تعليقات إبراهيم تزيد من توتر أمه -خصوصًا -، فعندما قالت له: إن كل هذه الحيوانات ستُذبح من أجل الكاهنة وحاشيتها قال لها إبراهيم وهو يضحك: «لقد قلت إنها زاهدة بالدنيا، هل يأكل الزُهّاد كل هذه اللحوم والدواجن؟... أم لعلها زاهدة على العكس من حاشيتها؟»...

وكانت والدته تصيح به كلما حاول أن يستفزها بتعليقاته أن يدعها وشأنها ويتفرغ لشيء آخر...

استغل إبراهيم انهماك الجميع في الاستعداد لحضور الكاهنة وتخفيف الرقابة عنه، في استعداد من نوع آخر للكاهنة وبطانتها؛

قام إبراهيم بجمع عدد من الفئران الميتة من القبو، وكذلك بعض العقارب والحشرات، وأخفي كمية من الصمغ – المادة اللاصقة – التي يستعملها والده في المتجر، ومصيدة يصطاد بها أطفال الحي العصافير.

كان لديه خطة يستقبل بها كاهنة الجبل...

* * * *

..الفصل الثالث..

في بيتنا كاهنة
(اليوم الموعود)

أزف اليوم الموعود، واستيقظ الجميع مبكرين في إجراء آخر التحضيرات...

رشت أم إبراهيم عتبة الباب بالرمل، ووضعت السجاد في باحة الدار على غير العادة، ورشت جدته عطرًا معتّقًا تستعمله في المناسبات الهامة النادرة...

وارتدى والد إبراهيم أفخر ملابسه، وأخذ ينتظر بقلق عند الباب، وهو يروح ويجيءُ وينظر إذا ما لمح عربة من بعيد...

أما إبراهيم فقد كان قد وضع لمسات الاستعداد الأخيرة لخطته!

عند منتصف النهار، وصل موكب الكاهنة وحاشيتها وخرج الجميع لاستقبالها، وتسارع الجميع بما فيهم الجيران لتقبيل يد الكاهنة والتي لاحظ إبراهيم - عن بعد - مدى قذارتها...

كانت الكاهنة جالسة على مسند خشبي يحمله أربع رجال نصف عراة ويشبهون هياكل عظيمة سبق ورآها إبراهيم في المقبرة...

أما الكاهنة نفسها فقد كانت على قدر من القبح يجعل خطة إبراهيم تفشل لو أن الفئران والعقارب التي أعدها كانت حية، لأنها كانت ستخاف منها وتهرب...

كانت الكاهنة تشبه كل ما توقعه إبراهيم: كان لها عين واحدة، وأخرى ملفوفة بخرقة سوداء، وكان لديها سن واحدة فقط في فم كبير جدًا، وكانت تضع قرطًا واحدًا في فتحة واحدة من فتحتي منخريها..وتوقع إبراهيم العين الواحدة والسن الواحدة، لكن شعرها الأشيب المختلط بالحناء وبألوان أخرى كان يغطي مكان الأذنين فلم يتأكد إبراهيم من ذلك...

كانت الكاهنة تنظر للجميع بعينها الواحدة بتكبّر شديد، وتقدم يدها لكل من تقابله ليقبلها من ثم تعود لتقدمها من جديد، وقد نسيت أن هذا الشخص قد قبل يدها، لذلك فقد قبل والده يدها أكثر من عشر مرات حتى ظهر عليه القرف، كذلك أخطأت وقدمت يدها لحراسها؛ الهياكل العظيمة... واستمر هذا الأمر إلى أن تقدم إبراهيم، وهو يتظاهر أنه يريد أن يقبل يدها هو الآخر. همس والد إبراهيم في أذن الكاهنة إن «الولد» يريد أن يقبل يدها، وغمز بعينه وهو يقصد أنه الولد الذي عنده المشكلة في رأسه، ظهر الفرح والسرور على وجه الكاهنة وأخفت ذلك بتكبر شديد، فقد كان طلب إبراهيم لتقبيل يدها دليلًا على مدى تأثره بها بمجرد أن وقع بصره عليها...، وتعاملت الكاهنة مع ذلك على أنه أمر متوقع، وهي تمد يدها وتهمس لوالد إبراهيم: لقد توقعت أن أموره ستتحسن فور رؤيتي...

أما إبراهيم فقد كان يعد العدة لشيء آخر تمامًا، أمسك بيد الكاهنة وهو يتظاهر أنه يريد أن يقبلها بكل تبجيل وتوقير، أغمض عينيه كما يفعل أي ولد مهذب، وبالضبط قبل أن تمس

شفتاه يدها فتح عينيه وأطلق صيحة اشمئزاز وتقزز جعلت الآخرين كلهم يجمدون من صيحته غير المتوقعة...

صرخ إبراهيم: «لحظة!» وركض مسرعًا، ما هي إلا ثوان حتى عاد ومعه «قطعة قماش» مبللة تستخدمها والدته في التنظيف وأخذ يفرك يد الكاهنة بشدة وبسرعة وسط دهشة الجميع، وقبل أن تتمكن الكاهنة من أن تفعل أي شيء...

ثم رفع إبراهيم قطعة القماش وعصرها أمام الجميع فإذا بماء أسود وسخ يقطر منها، بينما علامات الاشمئزاز الشديدة والقرف تحولت إلى غثيان عندما بدؤوا يتذكرون أنهم قبلوا تلك القذارة... وأسرعت جدته لتفرغ معدتها، فقد كان لديها ما يكفي من المشكلات هناك...

نظر إبراهيم بمكر إلى الكاهنة. تبخرت نظرة التكبر التي كانت على وجهها، وحل محلها الغضب والإحباط والإحراج، وكانت تخفي يدها التي كانت تمدها ليقبلوها...

كانت خطة إبراهيم تسير بنجاح. لقد تحول الاستقبال إلى كارثة مهينة للكاهنة ولحاشيتها.

ولم تكن قطعة القماش القذرة إلا خطة أعدها إبراهيم بإتقان، لقد كانت قطعة وسخة أساسًا لأن والدته استخدمتها في تنظيف سطح المنزل... واستخدمها إبراهيم ليثير اشمئزاز الجميع، لأنه واثق تمامًا من أن قذارة تلك الدجالة في داخلها، أكثر بكثير من القذارة الخارجية...

لو كنا مع إبراهيم في المشهد، لالتفت إلينا ولغمز لنا... ولكُنّا على الأكثر، صفقنا له مشجعين.....

* * * *

ثارت ثائرة والد إبراهيم من الموقف الذي وضعه إبراهيم فيه. فقد كان يريد أن يعطي صورة طيبة له أمام الكاهنة بالاستقبال الفخم الذي أعده، وإذا بإبراهيم يفسد الموقف كله، ويظهره بصورة الأب غير الحازم...

تلقى إبراهيم عدة لكمات سريعة جزاء على موقفه هذا، وهدده والده بأن «حسابه سيكون لاحقًا» وليس أمام الضيوف، واعتذر والده من الضيوف شارحًا لهم «صعوبة وضع إبراهيم» أما الكاهنة، فكانت لا تزال ترتجف غضبًا وهي تقول: إن العفريت الذي في رأس إبراهيم يحتاج إلى تأديب شديد، وإنها ستؤدبه بقسوة قبل أن تخرجه من رأس إبراهيم...

* * * *

طعام وانتقام

عندما فاحت رائحة الطعام الشهي الذي أشرفت الجدة على إعداده، حدث ما توقعه إبراهيم بالضبط، فقد توالى على المجيء رجال الدين وكهنة المعبد، بحجة الترحيب بكاهنة الجبل، ولكن لالتهام الطعام أيضًا، فقد كان رجال الدين - هؤلاء - كما عرفهم إبراهيم، لا تفوتهم فرصة للالتهام والأكل والشبع دون أن ينتهزوها. في أثناء انتظار الطعام، كان رجال الدين يتملقون الكاهنة بأسلوب سخيف ومكشوف، وكانوا يتظارفون بنكات لم يسمع إبراهيم بأسخف أو أسمجَ منها. فكر إبراهيم أنه لم يسبق له أبدًا أن سمع هذا الكمّ من النكات السخيفة في جلسة واحدة. تعجب جدًا من قدرتهم على حفظ هذا العدد منها...، كما تعجب من قدرتهم على القهقهة والضحك من النكات التي كانوا يروونها هم أنفسهم...

وكان ثمة واحد منهم استمر في الضحك طوال الوقت...

لكن كل ذلك توقف ما إن وُضع الطعام، فقد شمّر كل منهم عن ساعديه، وبدأ الهجوم الكاسح، حتى الكاهنة التي بدت نحيلة وضعيفة، صارت غولًا مخيفًا عند بدء الأكل...!

كانت الكاهنة تأكل بطريقة غريبة جدًا، جعلت إبراهيم يفهم لماذا لم يبق لها غير سن واحدة، إذ لابد أن أسنانها الباقية قد تحطمت بفعل طريقتها في التهام الطعام.

كانت تأكل الطعام كما لو أن بينها وبينه ثأرًا قديمًا تريد أن تقضيه وبسرعة. كانت تأكل لحم الخروف كما لو أن هذا الخروف قد قتل والدها أو جدها أو ابنها... كانت تنهشه نهشًا كما لو أنها تنتقم منه. وكانت تستعمل سنها الوحيدة كما لو كان منقارًا تنقر به الطعام...

وكان أداؤها بتناول الطعام بهذه الطريقة ومع الخرقة السوداء على إحدى عينيها، يجعلها تشبه ديكًا أعور يتناول طعامه بشراهة...

لم يكن بقية رجال الدين يختلفون كثيرًا في أن لديهم دافعًا للانتقام من الخراف الذبيحة. كانوا ينهشون في اللحم تحركهم دوافع أكثر من مجرد الجوع. كان نهمهم غريبًا جدًا كما لو أنهم يرون الطعام في حياتهم للمرة الأولى

وبعد أن انتهت الوليمة - المعركة-، استلقى الجميع على ظهورهم وقد أنهكهم النهش المسمى أكلًا...

وعندما أخذوا قسطًا من الراحة، حان موعد الوليمة التالية، واستنفروا كل طاقتهم مجددًا للانتقام والأخذ بثأرهم من

خروفين آخرين وثماني دجاجات...

وهكذا لمدة ثلاثة أيام، طعام وانتقام، وليمة مستمرة، تتخللها فترات راحة واسترجاع للقوى، دون أن تفعل الكاهنة أي شيء لإبراهيم أو «للشيء الذي في رأسه»، أما والدة إبراهيم، فقد كان رأسُها على وشك الانفجار، من كثرةِ إرهاقها بالطبخ وسماعها لإرشادات الجدّة وتأنيبها المستمر وتعليقاتها القارصة...

أما إبراهيم فكان مستمتعًا تمامًا بمراقبة ما يدور، خاصة وأن انشغال أهله بالكاهنة وحاشيتها، وتحضير متطلباتهم جعلهم يخففون من مراقبته والتضييق عليه...

وصار يمكن لإبراهيم أن يمارس هوايته المفضلة : مراقبة العالم كله، بمن فيه من الناس وسلوكهم وتصرفاتهم، و(الربط) بين ما يدور، دون أن يضايقه أحد بالحجر على ما يفعله ...

* * * *

في حلبة المصارعة: من يتحدّاني

لكن في اليوم الرابع، لاحظ إبراهيم أن الكاهنة أعطت بعض الإرشادات لوالديه، وأنهما أسرعا بالاستجابة لها في تحضير غرفة خاصة لها لتتفرغ له، وبينما كانا يعدّان طلباتها من إسدال للستائر وجعل الغرفة نصف مظلمة إلا من شموع خاصة وضعت في ركن الغرفة التي كانت تغرق في غيمة من البخور مع مُعطر نَفّاذ...

وتمكن إبراهيم من التسلل إلى الغرفة، ووضع فيها عدته التي ستساعده لاحقًا في تنفيذ خطته، ثم خرج مسرعًا دون أن يتنبه إليه أحد...

...وعند منتصف النهار، قالت والدته له، وهي تكاد تبكي: إن كل شيء سينتهي الآن، وإن معاناته قد قرب وقت خلاصها، وإنه خلال وقت قصير جدًا، ستتمكن الكاهنة من إخراج «هذا العفريت» من رأسه......

أما إبراهيم فقد قال لها وهو يبتسم: أنا أظنك يا والدتي، لقد اقترب موعد خلاص معاناتك من الطبخ لهؤلاء الوحوش الذين لا يشبعون، فقريبًا جدًا، وقبل أن تتمكن الكاهنة من إخراج «هذا الشيء» من رأسي، ستكون قد خرجت من البيت...

* * * *

أُدخل إبراهيم إلى الغرفة وحيدًا، تنبه إبراهيم إلى أن الظلمة التي أمرت بصنعها الكاهنة، وغيمة البخور، والرائحة، والشموع البعيدة كلها يهدف للتأثير فيه: إلى تخدير حواسه، إلى تعطيل بصره، والتأثير على أنفه، ومحاولة جعله ينعس بالتدريج، إلى أن يكون شبه نائم، وتكون حواسه قد عطلت...

قرر إبراهيم أن يكون متنبهًا فجعل من حواسه المتيقظة أسوارًا دفاعية يجب ألّا يسلمها أبدًا. أدرك أنه طالما كان مسيطرًا على حواسه فإنهم لن يتمكنوا منه...

وبينما إبراهيم جالس ينتظر مجيء الكاهنة، خطرت في باله فكرة، لم لا يستقبل الكاهنة بطريقة تخرب خطتها؟ لا بد أنها تريد أن تؤثر فيه منذ أول لحظة تدخل فيها إلى الغرفة المليئة بالمؤثرات الخاصة. لم لا يقلب الموقف فيكون ضدها بدلًا من أن تكون ضده؟ . كانت الغرفة شبه مظلمة وغارقة في البخور، ولا يمكن تمييز تفاصيل الأثاث فيه، المتطاير...، أسرع إبراهيم ووضع كرسيًا صغيرًا على بعد بضع أقدام من الباب، وقدر

أن الكاهنة لن تراه عندما تدخل، وأنها ستتعثر فيه، وتسقط هيبتها وثقتها بنفسها... كما توقع إبراهيم، دخلت الكاهنة وهي تركز نظراتها عليه بقوة، كانت تريد أن تخيفه، ما هي إلا بضعة خطوات، حتى اصطدمت بالكرسي الذي وضعه إبراهيم في طريقها، وخلال ثوان سمع إبراهيم صوت ارتطامها بالأرض...

ومن ثم صوتها وهي تصرخ وتقول: «آه... آه..... يا ظهري... كسر... ظهري... آه...أنجدوني...»

كتم إبراهيم ضحكته. كان يريد أن يسقط هيبتها فقط. لكنها سقطت كلها... أسرع يساعدها في النهوض، وهو يقول لها: «شاهدت الكرسي ولكني اعتقدت أن الآلهة ستحرسك أو أنها ستخبرك بوجوده في طريقك».

«آه، إذن أنت من وضع الكرسي، أيها اللعين، تفعل هذا بامرأة في سن جدّتك...».

فكر إبراهيم أن وجهها الحقيقي بدأ يظهر: الوجه الضعيف المتخفي خلف أقنعة القوة والهيبة والتحدث مع العفاريت.

قال إبراهيم: «كان من واجب الآلهة أن تُحذّر امرأة في سن جدتي...».

«اسكت أيها اللعين: إنك فعلًا كما أخبروني عنك أنك تتحدث عن الآلهة بسوء... آه... ظهري» قالت وهي تجلس على الكرسي وتتوعد إبراهيم بأسوأ العقوبات وأشدها:

«سوف أعاقبك أنت أيضًا، وليس عفريتك فقط.! سوف أؤدبك أيها الولد، وأعطيك التربية التي تحتاجها».

قال إبراهيم ببرود: «فاقد الشيء لا يعطيه!».



خرجت عين الكاهنة من مكانها وهي تسمع ما قال إبراهيم «ماذا قلت أيها الشقي اللعين؟... ماذا قلت للتو...؟».

تظاهر إبراهيم أنه فهم من سؤالها أنها لم تسمعه لعِلّة في أذنها. فاقترب منها، ووضع فمه قرب أذنها وصرخ بأعلى صوته: «قلت: فاقد الشيء لا يعطيه يا سيدتي».

«آه... آه... يا أذني، لقد مزقتها. آه، لم أعد أسمع بها...».

قالت وهي تضع يدها المليئة بالخواتم على أذنها وهي تتأوه: «ماذا دهاك؟!! لماذا صرخت في أذني؟».

أجابها إبراهيم: «ظننت أنك لا تسمعين جيدًا. لا بد أن الآلهة أخبرتك بمكان الكرسي، ولكنك لم تسمعيها...».

قالت وهي تكاد تتمزق من الغيظ: «كُفّ عن هذا أيها الملعون، سأجعل الآلهة تقطعك وتشويك وتقليك وترميك لأسُود العالم السفلي»...

قال إبراهيم وهو يتخيل أسود العالم السفلي تتسمّم بأفكاره وتتمرد على تلك الأوثان الزائفة: «أظن الأسود ستتسمم لو أكلتني...».

«اسمع أنت أيها الملعون، حركة واحدة أخرى وأقسم بكل الآلهة التي لا تُعد ولا تُحصى إني سأخرج من هنا دون أن أخرج العفريت من رأسك...»

همس إبراهيم لنفسه: «وهو المطلوب!» وأخذ يحرك رأسه يمينًا وشمالًا ويديه صعودًا ونزولًا...

نظرت إليه الكاهنة باستغرات: «ماذا تفعل؟ هل جُننت تمامًا؟».

قال إبراهيم بصراحة: «هل فقدت ذاكرتك؟ أنت قلت أي حركة وتخرجين، أنا أتحرك كي تخرجي بسرعة»...

«اسمع، لن أسمح لك أن تحرج مهنتي، الناس تدفع لي ولن أسمح لطفل مثلك أن يدمّر مهنتي، هل تفهم؟. اخرس قليلا ودعني أركّز فقد افسدت مزاجي».

سكت إبراهيم قليلًا، لكنه لم يخرس، فقد كان يريد أن يجعلها تمضي فيما تريد فعله حتى يهاجمها هناك.

كان يريد أن يكشف زيفها تمامًا.

* * * *

بصري اليوم حديد...!

تأمل إبراهيم الكاهنة وهي تركز مغمضة العينين، فكر أنه لم يسبق أن شاهد مخلوقة بهذه البشاعة، لكنه عاد وفكر ربما لو كانت امرأة طيبة وجدة حنونة لكان شكلها أفضل مما هو عليه. فكر إبراهيم: إن دواخل الناس ومشاعرهم تؤثر في الشكل الخارجي، حقد هذه السيدة وكذبها الدائم ودجلها وتكبرها جعلها تبدو قبيحة أكثر من حقيقتها، لو كانت متواضعة وَدُودَةً لبدت مثل أي جدة، ولأسرع كي يساعدها لو شاهدها في الشارع... ولما فكر في مشاكستها كما يفعل الآن...

كانت الكاهنة لا تزال مغمضة العينين وهي تدّعي التركيز. تساءل إبراهيم في نفسه إن كان إغماض العينين يُجدي حقًا ؟

فكّر وقال: بل إن الوصول إلى الحقيقة يتطلب فتح العينين على اتساعهما، ويتطلب استخدام كل الحواس اقصى استخدام.

ركز إبراهيم وفتح عينيه، بل كل حواسه...

بعد قليل أخذت الكاهنة تتمتم بعبارات لم يفهمها إبراهيم أول الأمر... ثم بدأ صوتها يعلو... وتتضح كلماتها...

كانت تنادي آلهتها...

«آن يا كبير الآلهة ووالدها يا تاج الوجود... نين يا أم الآلهة وأم الخير وأم الحنان»...

«نرغال يا عظيم الشأن ...أميشو يا إله الجبال والكهوف والمغارات... آرو يا إله المستنقعات... ميتو يا إله الدواب...»...

استمرت الكاهنة تنادي آلهة كثيرة، بعضها معروف جدًا، وأخرى لم يسمع بها إبراهيم من قبل، واعتقد أنها قد تكون آلهة لبلدان مجاورة، أو لعل بعضها اخترعتها الكاهنة شخصيًا عندما ضجرت ذات يوم ولم تجد شيئًا تتسلى به غير اختراع الآلهة...

استمرت الكاهنة تنادي آلهتها وهي مغمضة العينين وبصوتٍ عالٍ كما لو كانت الآلهة مصابة بالصمم...

ثم بدأت تقول: «أيتها الآلهة العظيمة، ساعديني ومدي لي حبالك حتى أتمكن من إنقاذ هذا الصبي الصغير المدعو إبراهيم».

... أخذت نفسًا عميقًا عندما ذكرت اسم إبراهيم كما لو أنها تذكرت ما فعل معها للتو...

قالت وهي مغتاظة: «إنه صبي شرير إبراهيم هذا أيتها الآلهة».

«وهو يستحق كل شر عسى أن يتأدب» ثم لان صوتها وهي تقول: «لكن أهله طيبون أيتها الآلهة، ووالده صديق لكهنة المعبد. كما أنه أفضل من يصنع تماثيلك في كل البلاد...

وهو رجل تقي يقدم القرابين دومًا».....

ثم تجشأت بصوت عال: «... وفوق كل هذا فإن الطعام الذي يقدم في بيتهم لذيذٌ جدًا» قالت وهي تمسح على بطنها وتتلفظ بلسانها الذي في مقدمته ثلاث شعرات طويلة.

«ابن هؤلاء الناس يذكرك بسوء أيتها الآلهة العظيمة» قالت وهي تصرخ كما لو أنها تود أن تسمع الآلهة بوضوح هذه الجملة.

«... وهذا إحراج للكهنة وللمعبد ولك أيتها الآلهة... أن يخرج من هذه العائلة المتدينة من لا يؤمن بك»...

«كما أنهم قد دفعوا جيدًا لي أيتها الآلهة... ولا أريد أن أحرج أمامهم...».

«أيتها الآلهة ساعديني... مدي لي أياديك وساعديني»...

تخيل إبراهيم مئات الأيادي تمتد للكاهنة ولا تعرف أيها تمسك... تخيل هذه الأيادي تمتد وتوسعها ضربًا وتخنقها وكاد أن ينفجر ضاحكًا...

ظلت الكاهنة تنادي الآلهة وهي مغمضة العينين... تأملها إبراهيم، وفكر في نفسه: إنها تنادي آلهة لن تسمعها ولن ترد عليها، ولن تأبه لها، ليس لأنها طرشاء أو بكماء. بل لأنها غير موجودة أصلًا؛ لأنها آلهة مزيفة، آلهة تخيلها هؤلاء الذين يروِّجون لعبادتها وكذبوا الكذبة ثم صدقوها...

ومن ثم صدقها بسطاء الناس الذين لا عقول لهم...

وجدها تنادي تلك الآلهة المزيفة بأعلى صوت...

ووجد نفسه ينادي ذلك الإله الواحد، بلا صوت، لم يعرف كيف

يناديه، لكنه عرف أنه لا يحتاج أن يرفع صوته كما تفعل تلك الكاهنة وآلهتها المزيفة، إله حقيقي مثل إلهه سيعرف ما يفكر به، ولن يحتاج إلى أن يتواصل معه بصوت مسموع...

كانت تلك هي المرة الأولى التي أحس فيها إبراهيم بحاجته إلى أن ينادي الإله...

ارتبك إبراهيم، لم يعرف كيف ينادي الإله، كانت تلك الكاهنة تسطر عباراتها الفخمة منذ سنين، أما هو فلم يكن يملك غير صدقه وبساطته... لم يكن يعرف كيف يتحدث إليه؛ شعر بالعرق يتصبب منه. اكتشف أنه كشف كذب الآلهة التي يعبدها قومه، لكنه لم يكن قد استكشف بعد كل عظمة الإله الواحد الذي تيقن من وجوده أنه لم يعرف كيف يخاطبه، كيف يناديه؟ التفت إلى الكاهنة، كانت تنادي آلهة كثيرة ومزيفة.

لم يجد سوى أن يناديه بعكس ذلك...

قال في نفسه، بصوت لا يسمعه إلا إله حقيقي: «أيها الإله الواحد، الإله الحق، ساعدني»، شعر براحة عجيبة وهو يقول هذا النداء، «الإله الواحد، الإله الحق» شعر أن الكاهنة ومعها حاشيتها وآلهتها وكهنة المعبد وتراث الأجداد والأعمدة الفخمة في الهيكل، كلها كانت تبدو ضعيفة أمامه.

كان يقف أمامهم وحده، لكن لأن معه الإله الواحد، الإله الحق، فقد كان أقوى.

* * * *

أكملت الكاهنة نداءها لآلهتها المزيفة، فتحت عينها، التفتت إلى

إبراهيم، ونظرت إليه وعينها تحاول أن تبرز من مكانها...

قالت له وبلهجة آمرة: أغمض عينيك يا إبراهيم، ثم أخذت تضخم صوتها أكثر وتقول: أغمض... أ... غ... م... ض... ع... ي... ن... ي... ك...

كانت مدربة على ذلك، أحس إبراهيم أنها لو استمرت في قول: «أغمض» فإنه سينام، فضل أن يتظاهر بالنوم؛ من أجل أن تكف عن التأثر فيه...

تظاهر إبراهيم بأنه يتثاءب، ثم أغمض عينيه نصف إغماضه، بينما استمرت الكاهنة في قول: «أغمض... أغمض» بصوت بدأ يخفت بالتدريج.

بعد قليل سمع صوتها وهي تقول: «إبراهيم هل نمت؟».

لم يَـرُد إبراهيم.

سألت مجددًا بصوت حاولت أن يكون حنونًا: «إبراهيم يا حبيبي، هي نمت؟».

لم يرد، لكنه أصدر صوتًا كالشخير ليجعلها تصدق أنه قد غطّ في النوم.

ورآها من تحت نصف الإغماضة، وهي تفرك يديها فرحًا بالنتيجة السريعة لعملها.

«الآن نستطيع أن ننادي العفريت»...

ووضعت الكاهنة عددًا من الأحجار في القدر أمامها وأخذت تتمتم بكلمات غريبة لم يفهمها إبراهيم، ولكنه عدّها كلمات غير مفهومة، وليس لها معنى، وكل ما تهدف إليه هو التأثير في

المستمع الذي سيتصور أن الكاهنة تتحدث بلغة العفاريت والجن.

* * * *

«توت روت موت حتشبسوت» كانت الكاهنة تقول بينما البخور يتصاعد من القدر أمامها...

قالت بصوت عال: «أنت يا من دخلت رأس الصبي إبراهيم».

«احك وتكلم معي، أنا أحمل تخويلًا من كل آلهة العالم العلوي والعالم السلفي...».

«أطلب منك أن تحدثني».

«أنت يا من دخلت رأس الصبي إبراهيم، اكشف عن نفسك وتكلم معي» قالت بصوت عال.

كان إبراهيم يعلم أنها لا تتوقع جوابًا، وأنها لم يسبق لها أبدًا أن تكلمت مع عفريت أو جني أو أي شيء آخر. إنما هي خيالاتها وأكاذيبها التي يصدقها الناس، ثم تصدقها هي من فرط التكرار...

لكن هذه المرة قرر إبراهيم أن يفاجئها... أن يجعلها ترتعب وهي تتحدث للمرة الأولى مع عفريت أو جني... سيجعل شعرها يقف وهي تستمع لهذا الشيء في رأسه وهو يحاورها بينما اعتادت هي أن يكون الصمت هو الجواب الذي تتلقاه في كل حواراتها الوهمية مع من تتخيلهم من عفاريت وجن وشياطين...

أصدر إبراهيم صوتًا ضخمًا من دون أن يحرك شفتيه... صوتًا حاول أن يجعله خشنًا رجوليًا يختلف عن صوته الفتي...... «ماذا تريدين يا امرأة؟».

بدا الرعب على وجه الكاهنة، أخرجت صيحة رعب صغيرة، وهي

لا تكاد تصدق أن ذلك يحدث لها...

أكمل إبراهيم: «ماذا تريدين يا خرقاء يا شمطاء يا عديمة الحياء، ولماذا تصرخين عندما تناديني؟ هل تظنينني أصم أطرش مثلك ومثل آلهتك الغبية؟»...

فتحت الكاهنة فمها الكريه وتدلّى لسانها ذو الثلاث شعرات، وظهرت سنها الوحيدة، فبدت مثل حيوان وحيد القرن وقد أصابته صاعقة... وحاولت بصعوبة أن تقول أي شيء فلم يخرج منها سوى أحرف متفرقة «من؟... من؟».

«أنا مــن؟...الآن تسأليني من أنا!...أنت تأتين وتريدين أن تتحدثين معي وعندما أكلمك تسألين من أنت؟».

«إنك فعلًا امرأة خرقاء...» قال لها بقوة وبصوت جهوري.

زاد ارتعاب الكاهنة وهي تلاحظ أن الصوت يزداد قوة وتحديًا، حاولت أن تجمع قوتها وشجاعتها ومدت يدها لتشرب كوب الماء أمامها، لكن إبراهيم لم يكن قد نسي وكان قد وضع الخل محل الماء، وما أن دخل الخل فم الكاهنة حتى لسعها بشدة وأخذت تخرجه وتبصقه بسرعة وهي تصرخ... «لا أكاد أصدق أن كل ذلك يحدث لي»...

«من أنت؟ أقصد: هل أنت جني أو عفريت أو شيطان أو روح شريرة؟ أو ملك أو إله؟... من أنت حتى أستطيع أن أتفاهم معك؟».

قال لها الصوت الذي يصدره إبراهيم من أعماقه: «لست أيًا من هؤلاء، أنا شيء مختلف لم تعرفيه من قبل ... شيء لم يمر عليك ولم تتعاملي معه أبدًا... ولو أنك كنت تعرفينه، لما

كنت تقومين بهذا الذي تقومين به...»...

«ماذا؟. من أنت؟... ما هو الشيء الذي يدخل رؤوس الناس وهو ليس عفريتًا ولا جنيًا ولا شيطانًا ولا روحًا شريرة ولا إلهًا؟» قالتها باستغراب...

«ماذا؟... ما هو الشيء الذي لم أتعامل معه والذي لو عرفته لكففت عما أقوم به» فكرت بهذا كما لو كانت تحل لغزًا، وأخذت تعيد السؤال وهي تحك أنفها الغليظ بشدة...

«ماذا هو؟... أخبرني... من أنت؟» قالت بحيرة ولهفة.

قال الصوت من أعماق إبراهيم «أنا العقل» قالها بوضوح وبساطة.

وساد الصمت.

* * * *

السيد (العقل)

«العقل؟!» قالت الكاهنة باستغراب. لقد زاد جواب إبراهيم من حيرتها... إنها تدّعي أنها تعرف أسماء عفاريت الجن والإنس والشياطين القادمين من العالم السفلي، وتعرف أسماء الأرواح الشريرة المسجلة على الألواح الحجرية في المعبد... وعلى قمة الجبل... لكن لم يسبق لها أن سمعت بعفريت أو مارد اسمه (عقل).

كررت مرة أخرى باستغراب: «العقل؟!.. وما أنت يا سيد عقل؟» سألته بأدب وقد أدركت أنه أخطر مما كانت تظن.

«أعني ما فصيلتك: مارد، شيطان، جني، إنسي؟».

«أنا غير كل ما ذكرت،أنا الحقيقة، أنا الحقيقة التي تكشف أكاذيبكم وتقطع أوصالكم وتنسفكم نسفًا»... ارتعبت الكاهنة وارتعدت أوصالها كما لو أن موجة برد قارصة قد هبّت مع كلام (السيد العقل) كما أسمته تملقًا.

«لماذا يا سيد عقل؟ ماذا فعلنا لك حتى تريد أن تقضي علينا؟ ماذا فعلنا لك؟»... قالت الكاهنة وقد أخافها هجوم السيد العقل بلهجته الواثقة...

«لم تفعلوا لي كما فعلتم للناس؛ خدعتموهم دائمًا، حجبتم عنهم الحقيقة، ملأتم حياتهم بالأكاذيب والخرافات حتى صارت جزءًا منهم، كنتم مثل تلك الخرقة السوداء البالية التي تضعينها على عينيك، لكن مع فارق أنكم تغطون كلتا العينين...

تمنعونهم من الرؤية تمامًا»... قال إبراهيم، أو السيد العقل.

تحسست الكاهنة الخرقة السوداء على عينها اليسرى برعب، خافت أن تمتد يد وتنزعها من مكانها... بينما أكمل الصوت بحسم «إنكم تمنعون عنهم الرؤية الحقيقية، وتقدمون لهمم رؤية بديلة مزيفة، تسلبون منهم أبصارهم وتخبرونهم بما تريدون أنتم أن يرونه هم، وتجعلونهم جميعًا مثلك: بعين واحدة، لا يرون إلا ما تريدون أنتم».

«كلهم بعين واحدة!. ما هذا الظلم يا سيد؟. ألا ترى أنهم كلهم لديهم عينان اثنتان إلا أنا؟» وأخذت تتظاهر بالبكاء لأنها بعين واحدة. «أنت عوراء يا كاهنة؛ حتى لو كانت لديك عينان سليمتان فأنت عوراء لأنك لا ترين الأمور إلا من جهة واحدة، إنك بعين واحدة لأنك ترفضين أن تعترفي بعين أخرى ترى الأمور من مكان آخر وبشكل مختلف...».

كانت الكاهنة قد فتحت فمها ببلادة وهي لا تفهم حرفًا مما يقول (السيد العقل)... وكان ذلك واضحًا عليها دون أن تقول أو تسأل.

قال إبراهيم وهو يمثل دور (السيد العقل): «طبعًا أنت لا تفهمين ما أقول، وهذا طبيعي جدًا ومُتوقع منك ومن أمثالك، لو أنني كنت في رأسك لفهمت ما أقول».

زاد رعب الكاهنة، أمسكت رأسها وأخذت تتمتم بصوت منخفض بأصوات آلهتها خوفًا من أن يدخلها هذا الشيء ويفسد رأسها.

قال السيد العقل: «سأعطيك مثالًا يا كاهنة يا خرقاء يا شمطاء لعلك تفهمين ما أقول».

نظرت إليه بحذر، وهي لا تزال تمسك برأسها تتمتم بأسماء الآلهة خوفًا من أن يؤدي (الفهم) إلى أن يُدْخِلَ العقل إلى رأسها...

أكمل إبراهيم وهو يؤدي دور العقل «عندما يمرض أحدهم، فإنكم تقولون له: إن السبب أنه لم يقدم قرابين للآلهة الغبية، أو أنه لم يتعبد لها كما يجب، أو لم يوقِّر رجال الدين...

ولهذا فإنكم تفسرون المرض على أنه نتيجة لرضا تلك الآلهة وأولئك الكهنة».

«وبالتأكيد كنتم تحرصون على إبقاء هذه التفسيرات في رؤوس الناس لأنها تربطهم بكم، وتجعلهم حريصين على إرضاء الآلهة، وبالتالي إرضائكم، عبر القرابين والذبائح والأموال... إنكم تبقون على هذه التفسيرات من أجل جيوبكم لا أكثر».

«وماذا إذن سبب المرض إذا لم يكن غضب الآلهة؟!» قالت الكاهنة بحيرة...

أجاب إبراهيم: «كل مرض له أسبابه؛ يمكن أن يكون المرض بسبب التعرض للبرد الشديد، أو بسبب القذارة، أو بسبب السباحة في المياه الآسنة، أو بسبب الهزال الشديد وعدم توفر الطعام لأن كل الطعام يذهب إلى بطونكم»...

تأملت الكاهنة فيما يقول (السيد العقل) طويلًا. ثم سألت بذهول: «... وكيف تعرف كل هذا؟».

«هذا هو أنا، هذه هي وظيفتي، أنا أبحث عن الأسباب وراء الأشياء، أراقب كل ما يدور، أراقب مثلًا كل مرض يحدث، وألاحظ ماذا حصل قبلها بالضبط، هل سبح الطفل في المستنقع قبل أن يصيبه المرض، أم هل أكل شيئًا غريبًا وقديمًا، أم إنه بقي بلا ملابس في البرد، وأجمع ملاحظاتي هذه، وأربط بينها، وأصل إلى سبب المرض الحقيقي».

حكّت الكاهنة رأسها بشدة، لم يكن هذا الكلام له أي معنى بالنسبة إليها، قالت: «لم أفهم أيضًا لأني أخاف أن تدخل رأسي وتصيبني بلعنتك إذا فهمت...».

قال العقل: «أنت محقة... الفهم كثيرًا ما يؤدي إلى دخولي... لذلك تفضلون ألّا تفهموا، ألّا تفكروا، أن تغضوا البصر عن ملاحظة أي شيء، أن تغمضوا أعينكم حتى لا تفهموا، فإذا فهمتم يومًا انهارت آلهتكم وأوثانكم المزيفة»...

قالت الكاهنة وعينها تخرج من مكانها مجددًا في محاولة لإخافته: «إيـاك أن تذكر الآلهة المعظمة بسوء وإلا لاحقـتـك لعناتها، وضربتك بصاعقة وشطرتك نصفين»...

قال إبراهيم: «آلهتك أعجز من أن تفعل هذا، وبدلًا من أن تشطرني، فإنني أنا العقل، قادر على تبخيرها، إنني لن أقول:

قادر على شطرها إلى مئة شطر، بل أقول بتبخيرها؛ إلغائها تمامًا من الوجود، العقل قادر على جعلك تبحثين عن آلهتك ولا تجدينها ولو بعد ألف عام...»...

لم تكن الكاهنة قد سمعت في حياتها المديدة أحدًا يتحدث عن الآلهة بهذه الطريقة، ولقد نظرت رأسًا إلى السقف وهي تضع يدها فوق رأسها خوفًا من أن ينهار فوقها، لقد اعتقدت أن الصواعق ستضرب البيت فور أن نطق السيد العقل بتلك الكلمات على لسان إبراهيم...

قال السيد العقل: «الإله الحق لا يحتاج إلى أن ينتقم بهذه الطريقة... إنه أكبر من هذا الهراء الذي تتحدثون به»...

قالت الكاهنة وهي خائفة: «... ولكن هل لك أيها السيد العقل صواعق وبراكين ونيران يمكن لك أن تحرق وتدمر بها؟...»...

قال السيد العقل باستخفاف بالسؤال: «أنا؟ أبدًا ليس لدي أشياء كهذه...»...

قالت الكاهنة بحيرة: «إذن كيف تقول إنك ستدمر الآلهة، وأنت بلا سلاح...؟!»...

قال إبراهيم، وقد صار لسانًا للسيد العقل: «لم أقل إني بلا سلاح، إنما سلاحي مختلف، سلاحي يدخل الرؤوس، وهو لذلك أقوى من كل الأسلحة التي تخرق وتزلزل وتدمر...»...

قالت الكاهنة وفي صوتها مسحة من سخرية: «وما سلاحك هذا... الذي هو أقوى من البرق والرعد والبراكين والأوبئة؟».....

قال إبراهيم بنبرة فيها انتصار: «سلاحي هو الحقيقة. سلاحي هو الصدق...».

قالت الكاهنة باستنكار واستهزاء: «الصدق؟!...الحقيقة؟!»... ثم غادرها خوفها عندما تأكدت أنه لا يحرق ولا يرسل صواعق، وأطلقت ضحكة عالية...

«أضحكتني يا سيد عقل. الصدق؟ والحقيقة أيضًا؟... كيف ستدمر أي شيء بهذا يا صغيري»... قالت الكاهنة: «إنك تبدو بريئًا جدًا وصغيرًا جدًا على مقارعة الآلهة، نصيحتي لك أن تكف عن ذلك، لأنها ستنتقم منك وتلحق بك أذى لا يمكنك تخيله...».

قال إبراهيم: «إنها أعجز من ذلك، الصدق سيكشف كذبها، والحقيقة ستكشف زيفها... إنها غير موجودة إلا في رؤوس فارغة من العقل، وعندما يدخل العقل، فإنه يطردها، كما تدخل أشعة الشمس إلى الغرفة المظلمة، فتطرد ظلامها...».

قالت الكاهنة بتعجب: «الشمس تطرد الآلهة؟. كيف ذلك إن إله الشمس من ضمن الآلهة التي نعبدها، وعلاقة كل الآلهة بالشمس جيدة جدًا!».

قال إبراهيم: «إنك لا تفهمين ما أقول، ليس هناك إله الشمس أو القمر. أو البحر أو الصحراء، ليست تلك سوى أسماء اخترعتموها أنتم وآباؤكم، لا وجود لها في الحقيقة، ولو كان ثمّة عقل في رؤوسكم، لعرفتهم أنه لو كان هناك فعلًا إله للشمس وآخر للظلام، لتصارعت الآلهة بينها، ولسادت الفوضى في كل مكان...»...

قالت الكاهنة بلهجة النصر: «إن أحدًا لن يصدقك، سيرونَ ما تقوله كذبًا، الناس تؤمن بالآلهة ولا تعرف هذا العقل الذي تتحدث عنه»...

قال العقل على لسان إبراهيم: «ربما...».

«لكن مع الوقت، وكلما انكشفت الأكاذيب وبان ضعفها وزيفها، فإن الناس ستكف عن تصديقها... وبالتدريج سيؤمنون بأن ما يقوله العقل هو الصحيح»...

قالت الكاهنة: «لن يحدث هذا أبدًا» وأطلقت ضحكة استفزازية...

قال السيد العقل وهو يتحدث على لسان إبراهيم: «خذي نفسك مثالًا، الناس تعتقد أن لديك حظوة ومكانة عند الآلهة، وهم يعتقدون أنك تستطيعين إخراج العفاريت والشياطين... ولذلك فهم يهابونك ويخافونك ويحترمونك، ويدفعون لك جيدًا أيضًا»...

شعرت الكاهنة بالزهو والفخر وهي تسمع ما عدّته مديحًا، وأخذت تعدل شعرها وهي تقول: «آه، نعم، هذا صحيح، الناس تحبني وتحترمني وتخاف مني، وتدفع لي نقودًا كثيرة...».

قال إبراهيم: «لكنك مجرد كذبة!. بل أنت لست إلا مجموعة من الأكاذيب».

تغيرت ملامح الكاهنة مجددًا وقالت بغضب: «تأدب يا سيد عقل، ولا تتجاوز حدودك، انتبه إلى أني لم أخطئ في حقك».

قال السيد العقل بهدوء: «بل أنت لست إلا كذبة، هذه هي الحقيقة التي لا مجاملة فيها... لست إلا كذبة، هذه هي الحقيقة التي لا مجادلة فيها... لست إلا كذبة، وحان وقت كشفها للناس».

قالت الكاهنة باستهزاء: «... وكيف ستكشفها للناس؟... هل ستقول لهم: إني كذبة؟ وهل تتصور أنهم سيصدقونك؟».

قال السيد العقل: «معك حق، لو قلت لهم لن يصدقوني. إنهم يصدقونك أنت. لكن هناك طريقة أخرى بدلا عن الكلام، سأجعلهم يرونك على حقيقتك، لعل هذا يفتح أعينهم...».

قالت الكاهنة بلهجة مستنكرة: «يرونني على حقيقتي!».

«ماذا تقصد؟»...

قال إبراهيم: «أقصد أنهم يتصورونك قوية ولا تقهرين، وتتحدثين مع الآلهة، تخرجين العفاريت... ماذا لو رأوك امرأة مذعورة وضعيفة وخائفة...؟».

قالت الكاهنة باستفزاز وتحدٍّ: «وكيف يحدث هذا؟»...

قال السيد العقل: «سترين الآن يا عجوزتي...».

* * * *

كشف المستور

مد إبراهيم يده ليخرج عدته ويكمل الخطة التي أعدها بإتقان، لم يكن إبراهيم يحب أن يدبر مكائد لأحد كما يفعل بعض أقرانه، كان يساعد الجميع ويحترم الجميع، ولكنه الآن دبر مكيدة متقنة فقط لكي يفضح الكاهنة وزيفها... كما أنه لم يعبث قط بحيوان ميت، لكنه الآن يريد أن ينبه الناس أنهم موتى لأن عقولهم ماتت، وإن الحيواناتَ الميتة قد تستطيع أن تفضح الحقائق الواضحة التي لا يرونها.

أخرج من تحت المقعد الذي جلس عليه (المصيدة) التي يستعملها الصبيان في الحي ليصيدوا الطيور، لكن بدلا من الحجر الذي

يستخدمونه ليصيبوا الطيور كانت هناك مفاجأة جعلت الكاهنة تشهق مذعورة... وجعلها تفتح فمها رعبًا ويتدلى لسانها ؛ ذو الثلاث شعرات...

في المصيدة كان هناك فأر ميت، صوبه إبراهيم نحو فم الكاهنة المفتوح عن آخره...

سدد إبراهيم الفأر الميت نحو الكاهنة وأطلقه وسط رعبها الذي جمدها وجعلها عاجزة عن الهرب...

انطلق الفأر الميت من يد إبراهيم إلى حيث ارتطم بلسان الكاهنة المتدلي رعبًا.

ارتطم لكنه لم يسقط على الأرض.

لقد التصق الفأر بلسان الكاهنة وشعراته الثلاثة، كيف حصل ذلك؟.

آه، إنه إبراهيم، لقد استعمل المادةَ الصمغية التي جلبها من متجر أبيه، قام بوضعها على الفأر من الجهة التي سترتطم بالكاهنة.

خلال أقل من ثوان، كانت المادة الصمغية قد أثبتت أنها ممتازة جدًا. فقد التحم الفأر الميت بلسان الكاهنة حتى صار يبدو أنه تكملة له، بينما كانت الكاهنة تصرخ وتحاول أن تتكلم فيبدو صوتها كما لو أنه عواء، وهي تحاول سحب الفأر من ذيله وإزاحته عن لسانها، بينما كان لسانها يسحب مع الفأر...

لم يضع إبراهيم وقته... وضع فأرًا آخر وأطلقه نحوها، استقر هذه المرة على رأسها ودخل في شعرها الأشيب المختلط بلون الحناء...

أخذت الكاهنة تتلوى رعبًا وتصرخ بصرخات غير مفهومة، كان هناك فأر في لسانها، وآخر في رأسها... وكانا ملتصقين ويبدو أنه ليس من السهل إزاحتهما...

خلال ثوان أخرى وضع إبراهيم فأرًا ثالثًا وصوبه نحو عين الكاهنة، لكن لأنها كانت تقفز، لم يصب هدفه، وإنما أصاب فتحة ثوبها، وحشر بين صدرها وثوبها ملتصقًا هناك...

أخذت الكاهنة تصرخ وتستنجد بصوت عال ولكن بكلمات غير مفهومة، كان صوتها يبدو كما لو أنها تعوي أو أنها ذئب قد مسخ قطةً ورُميت في بئر... شعر إبراهيم بالشفقة عليها، لم يكن يريد أن يؤذي أحدًا، لكنه شعر أن كشف الحقيقة أهم.

سمع إبراهيم صوت التصفيق والتشجيع من الخارج، لقد تصور أهله والحاشية أن الكاهنة قد أحرزت تقدمًا في إخراج العفريت من رأسه، وأن هذه الأصوات هي أصوات العفريت الذي يتلوى ألمًا من ضربات الكاهنة...

أما الكاهنة فقد كانت تتلوى وقد تحولت إلى كائن غريب تتملكه ثلاثة فئران ميتة، واحد في لسانها وآخر في صدرها وآخر في رأسها...

أخذت تقفز وهي تحاول أن تتخلص من أيٍّ من هذه الفئران، شدت الفأر الملتصق برأسها، ولدهشة إبراهيم، خرج الفأر على الفور بيدها، لم يكن اللاصق سيئًا، لقد خرج شعرها كله مع الفأر، وظهرت الكاهنة صلعاء تمامًا - مثل حاشيتها بالضبط - لقد كان هذا كله شعرًا مستعارًا وضعته بإتقان وخرج مع الفأر...

نظرت الكاهنة برعب إلى شعرها على الأرض، وأطلقت مزيدًا من الصرخات اليائسة...



ولكنها استمرت تحاول أن تنزع الثاني العالق في صدرها، اضطرت من أجل ذلك أن تنزع رداءها...

فعلا كان الفأر قد التصق بثيابها، وتمكنت من التخلص منه فور أن نزعته...

أخفى إبراهيم عينيه بيديه تأدبًا وحياء من منظر الكاهنة وهي بلا ملابس، لكنه أزاح يده عن عينيه وقد أدهشه المنظر أمامه...

كانت الكاهنة قد بقيت بالسراويل تحت الرداء، وهي تحاول إزاحة الفأر الملتصق بلسانها...

كانت الكاهنة بصلعتها وصدرها العاري تشبه تمامًا حاشيتها الذين جاؤوا يحملونها، وهم نصف عراة بسراويل مشابهة تمامًا...

كانت الكاهنة، بعد أن سقط عنها رداؤها وشعرها المستعار، تشبه تمامًا الهياكل العظيمة التي يشبهها هؤلاء الرجال في الحاشية...

بفارق أنهم لا يملكون لسانًا فيه فأر...

صرخ إبراهيم بذهول: «إنك رجل أيتها الكاهنة...»...

صرخت الكاهنة التي لم تكن قد انتبهت أنها عندما تخلصت من الفئران كشفت سرها الذي أخفته سنين طويلة... صرخت: «آووه... لقد كشفت...» وهي تحاول أن تخفي صدرها ورأسها...

في هذه اللحظة بالذات، اتضح أن الفأر الملصق بلسان الكاهنة لم يكن ميتًا، لقد فتح عينيه ليشاهد الفم الكريه والسِّن الواحدة والصلعة المرعبة... وأطلق الفأر صرخة استنجاد وأخذ يتلوى رعبًا...

أما الكاهنة - التي اتضح أنها رجل - فقد جمدت من الرعب وهي تستنتج ما يدور في لسانها...

أخذت تقفز وتتقلب أرضًا، ووصلت إلى الباب وفتحته وانطلقت راكضة - أو راكضًا لأنها رجل!

في الخارج سمع إبراهيم أولًا الصمت الذي أعقب ظهور الكاهنة دون شعر مستعار ودون ثياب النساء، وبفأر حي ملتصق بلسانها...

ثم سمع إبراهيم صوت الضحكات والقهقهات والتصفير...

كان لا يزال صوت (الكاهنة) المرعوبة وصوت الفأر الأكثر رعبًا...

بعد قليل دخل والد إبراهيم إلى الغرفة، وقال له:

«إياك أن تعتقد أنك نجوت، أنت في ورطة...».

* * * *

آذان لا تسمع وعيون لا تبصر

اعتقد إبراهيم في البدء أن انكشاف كذب الكاهنة، بل انكشاف أنها ليست كاهنة أصلًا، بل إنها رجل أصلع يرتدي ملابس نساء ويضع شعرًا مستعارًا... اعتقد أن ذلك سيجعل كل ما يقوله رجال الدين الذين دعموا الكاهنة يبدو كذبًا هو الآخر...

«ما داموا كذبوا في هذه، ورأى الناس كذبهم عاريًا بلا شعر مستعار ولا رداء، فلا بد أنهم يكذبون في كل شيء».

هكذا تصور إبراهيم...

لكنه فوجئ، أن الناس ضحكت على الكاهنة عندما رأوها رجلًا أصلع، لكنهم لم يلتفتوا ليحاسبوا رجال الدين ويسألوهم كيف سمحتم لرجل كاذب أن يدعي أنه (كاهنة) تخرج العفاريت، وتأخذ نقودًا كثيرة طول تلك السنين؟...

أما رجال الدين فقد أسرعوا (يفسرون) الأمر فجعلوه لصالحهم وعقدوا (صلاة) عاجلة في المعبد، وأعلنوا في نهايتها أن الآلهة أخبرتهم أن (الكاهنة) كانت دومًا امرأة صالحة، لكن العفريت الشرير الذي في رأس إبراهيم مسخها رجلًا أصلع لديه فأر في لسانه...!!

وحذر رجال الدين الناس من الاقتراب من هذا العفريت الخطر الذي يشاكس الآلهة ويذكرها بسوء ويمسخ الناس الطيبين كما فعل مع الكاهنة التقية الورعة...

ذهل إبراهيم وهو يرى كل الناس تصدق ذلك!.

لم يربطوا مرة أخرى!!

* * * *

«ابحث عن بديل»

قال إبراهيم لوالده: «يا أبت، أنا أعرف أنك تعرف أنهم يكذبون... أنا أعرف أنك تفهم الأمور على حقيقتها، أنا أعرف أنك لا تصدق شيئًا مما يقولون، أعرف أن رأسك أكبر من كل هذه السخافات التي يقولونها، أنا واثق من ذلك يا أبت»، كان إبراهيم يتوسل لوالده وهو يتكلم معه...

قال والد إبراهيم وهو يتحدث بألم واضح: «أنت تحرجني يا

إبراهيم، تحرج مكانتي بين الناس بما تقول، أنا رجل مهم في المدينة، أنا أبيع للناس تماثيل الآلهة التي يعبدونها، لا يمكن أن يكون في بيتي من يذكر الآلهة بسوء...».

قال إبراهيم بألم مماثل: «يا أبت إنها آلهة كاذبة ومزيفة، وأنت تعرف ذلك».

قال والد إبراهيم وهو يشيح بوجهه عن إبراهيم : «اسكت. اسكت. اسكت يا إبراهيم لا تتحدث بمثل هذا أمامي».

أمسك إبراهيم بيدي والده وقال له: «انظر يا أبي إلى يديك هاتين، أنت تصنع الآلهة بهما، من خلق يديك يا أبي إذا كنت تخلق بها الآلهة؟ لا يمكن أن تكون آلهة ما دامت تحتاجك لتكون موجودة».

سحب والد إبراهيم يديه من يدي إبراهيم ووضعها على أذنيه، كما لو أنه لا يريد أن يسمع ما يقول إبراهيم؛ كما لو أنه يخاف أنه لو سمع لربما اقتنع لما يقول...

صرخ والد إبراهيم: «كف!... كف!...».

صاح إبراهيم كي يجعل والده يسمع رغم أن أصابعه غطت أذنيه: «هل تطعمك هذه الآلهة - التي تصنعها أنت - لو جعت؟!».

قال إبراهيم وهو يكاد يبكي: «هل تسقيك لو أنك عطشت؟!».

أزاح والد إبراهيم أصابعه من أذنيه، وأمسك إبراهيم من قميصه وجرّه إليه غاضبًا: «اسمع أيها الولد!».

قال والد إبراهيم بغضب: «... الأمر ليس بالبساطة التي تتخيلها، الآلهة موجودة فينا وفي عاداتنا وفي رؤوسنا، لقد تربينا على

عبادتها، لن يكون الأمر أن يأتي ولد في سنك ويسأل بعض الأسئلة ثم نترك آلهتنا ونطيعه...»...

أكمل بغضب يتزايد: «عندما تهدم هذه الآلهة وتنسفها، فإن عليك أن تجد بديلًا...أفهمت؟...».

«أين هو بديلك الواحد الذي تتحدث عنه؟».

«لابد أن يكون موجودًا وواضحًا... لكي تقنع الناس له... لا يمكن أن تتحدث عن آلهتنا المتعددة، دون أن تملك معلومات أكثر عن إلهك الواحد الذي هو بديل لكل آلهتنا...

أفهمت؟» سأله وترك قميصه...

وظل سؤاله يتردد في رأس إبراهيم.

وظل إبراهيم يفكر...

* * * *

فكر إبراهيم أن والده كان محقًا.

لا يمكن له أن يلغي الآلهة من رؤوس الناس بمجرد أن يواجههم بحقيقة زيفها وكذبها، لقد تربوا على كونها هي الآلهة، كبروا على ذلك... ولن يكون سهلًا إلغاؤها...

سيشبه الأمر طفلًا نشأ في عائلة بين والديه وإخوته، وبعد أن كبر على ذلك يأتي من يقول له: إن عائلته الحقيقية هي عائلة أخرى، إن والده الحقيقي هو غير الذي رباه وأنفق عليه، وإن أمه التي ولدته هي غير تلك التي سهرت عليه وأغدقت عليه حنانها...

لن يكون ذلك سهلًا، لن يكون سهلًا على الطفل تقبل الأمر...

لن يكون سهلًا الانسلاخ من العائلة الجديدة...

حتى لو كانت غير عائلته الحقيقية...

كذلك كانت تلك الآلهة، رغم أنها مزيفة، إلا أنها كانت راسخة في عاداتهم، في كل ما تعلموه، واختزنوه في ذكرياتهم...

لم يكن الأمر سهلًا أن يسألهم بعض الأسئلة، ثم يجدهم تركوا آلهتهم التي كانت كلّ ما يعرفون...

كان والده على حق...

ليس الأمر في أن يهدم الآلهة فقط.

كان عليه أن يعرف مزيدًا عن الإله الواحد... الحق.

خرج إبراهيم إلى خارج المدينة، ومعه أفكاره وأسئلته وهمومه...

مر بالنهر العظيم، وهو يجري ويحمل معه الحياة والخصب... مر بالبساتين المليئة بالأشجار محملة بالثمار، مر بالأراضي الزراعية المنبسطة أمامه، وقد لونتها السنابل بلون الذهب.

كان كل ما مر به من مظاهر الطبيعة يحمل توقيع وبصمة الإله الواحد العظيم الحقيقي الذي أيقن بوجوده، لم يكن من الممكن لتلك الآلهة المزيفة التي يصنعها والده، أن تصنع عالمًا بهذه الرحابة والسعة...

ولم يكن ممكنًا لأي عدد من الآلهة أن تصنع عالمًا بهذا التناسق...

لم يكن ثمّة إلا إله واحد صنع هذا العالم...

لكن أين هو هذا الإله؟ ومن هو؟... وكيف يصل إليه؟ كيف يناديه

تلك الآلهة التي يعبدها قومه مزيفة حتمًا. كاذبة بالتأكيد...

لكنها كانت لدى قومه واضحة يرونها في كل مكان: في المعبد، في البيت، في الشارع...

رغم كذبها وزيفها، كانوا يجدونها في كل مكان...

لكن هذا الإله الواحد الحق الذي توصل إبراهيم بعقله إليه، أين هو...، ما صفاته، كيف يمكن الوصول إليه؟...

سأل إبراهيم هذه الأسئلة بينما كان يبتعد عن المدينة وبساتينها، وكانت الأسئلة تعذبه، لأنه لم يكن يجد الأجوبة، كان محتارًا، كان قلقًا...، وكان مصممًا على الوصول إلى الجواب.

* * * *

..الفصل الرابع..

خارطة الطريق... إلى الإله الحق

الليلة التي تغيّر فيها التاريخ

ظل إبراهيمِ يسير دون أن يعرف إلى أين يذهب، بالتدريج غربت الشمس وحلَ الليل، قد ابتعد كثيرًا عن المدينة ولم يعد بالإمكان العودة إليها خاصة والطريق قد يحف بالذئاب والمخاطر...

لمح إبراهيم من بعيد تلًا مرتفعًا، فقرر أن يذهب ويقضي الليل هناك لعله يجد مغارة صغيرة تدفئ برده وتحميه من ذئب أو وحش مفترس يهاجمه...

ذهب إبراهيم إلى التل، كان الظلام الموحش، يزيد من حريته وقلقه، أصوات الذئاب البعيدة كانت تزيد من خوفه...

بدا ذلك الظلام لإبراهيم، مثل تلك الحيرة التي تلفه... كان الظلام موجودًا قبل أن يحل الليل، هكذا فكر إبراهيم، كان الظلام هو عدم الاهتداء إلى جواب، هو عدم الوصول إلى درب الإله الحق، فكر إبراهيم أن الظلام في مدينته هو السائد حتى في النهار، ما دام أهلها لا يعرفون الإله الحق، ما داموا يغمضون أعينهم عن الحقائق. فكر إبراهيم أنه الآن جالس في الظلام الحالك في هذا التل البعيد عن المدينة، وأن أهله الآن جالسون في الظلام نفسه

حتى لو كانوا قد أشعلوا الشموع وأناروا القناديل...

الظلمة في التل، مثل الظلمة هناك في البيوت، حتى لو كانوا لا يدركون، لكنها ذاتها ما داموا لا يعرفون الطريق إلى الإله الحق...

ما داموا غارقين في التصديق بتلك الآلهة المزيفة، الظلمة هنا وهناك واحدة، بل ربما كانت أقل في التل عند إبراهيم، ما دام هو يبحث عن الضوء، عن النور، بينما هم يتصورون الظلام هو الوضع الطبيعي...

تلفت إبراهيم بوجهه وهو جالس على قمة التل، كان يبحث عن دليل، عن إشارة، تؤدي به إلى الضوء، إلى النور الذي يزيح الظلام...

فكر إبراهيم في نفسه أن الإله الواحد الذي خلق كل هذا العالم لن يتركه وحيدًا في هذه الحيرة، الإله الذي صنع عالمًا بهذا الإبداع والتناسق، وخلق فيه الإنسان، لا يمكن أن يتركه هكذا دون دليل، دون إشارة...

ظل إبراهيم يلفت وجهه بين الجهات الأربع، «الإله الواحد لابد أن يمده بدليل...الإله الواحد لن يبقيه في حيرته».

«الإله الواحد سيكشف عن ذاته، عن نفسه».

كان إبراهيم يقول ذلك في نفسه وهو يدور بوجهه بين الجهات... وكان واثقًا أن الإله الذي خلقه وجعل عنده تلك الحواس يعرف بما يفكر، سيسمع نداءه وينقذه من حيرته... ولو بدليل... ولو بإشارة...

فجأة، بين التلال، برز القمر، منيرًا ساطعًا، مزيحًا الظلمة...

تأمل إبراهيم سطوع القمر وقد ازاح الظلمة. هل يكون هذا هو الدليل؟.

هل يمكن أن يكون الإله الواحد يكشف عن نفسه في هذا القمر الذي برز بين التلال؟

هل يمكن أن يكون الإله الواحد هو هذا القمر الأبيض الجميل الذي جعل إبراهيم يميز قليلًا بين الأشياء بدلًا من الظلمة الدامسة.

تأمل إبراهيم في القمر، إنه واحد أيضًا، هل يكون لذلك دلالة؟.

وهو كبير، هل لكبره علاقة بالإله القوي القادر الذي لابد أن يكون قد خلق هذا الكون؟...

هل القمر هو الإله الواحد؟. تساءل إبراهيم بتشكك وهو يواجه القمر وجهًا لوجه...

سأل إبراهيم نفسه، وسأل القمر أيضًا: هل أنت الإله الواحد أيها القمر؟...

لم يَـرُد القمر، لكنه انسحب، كأن انسحابه جوابًا لإبراهيم، جوابًا بالنفي: الإله الحق لا ينسحب. الإله الحقيقي لا يترك الناس الذين يبحثون عنه...

* * * *

حـلـت الظلمة مجددًا، وعرف إبراهيم أن الدرب لا يزال بعيدًا.

تلفت بوجهه مجددًا، وسأل الأسئلة نفسها، وفجأة -من بعيد في السماء- تلألأ نجم ساطع، مختلف عن بقية النجوم، أكثر سطوعًا، وأشد بروزًا... تساءل إبراهيم إن كان هذا هو الجواب، تساءل إن كان هذا هو الدليل الذي يقدمه الإله الحق، تساءل إن كانت



هذه هي الإشارة التي يطلبها.

نظر إبراهيم إلى النجم الساطع، إنه يعرفه جيدًا، أنه دليل الرعاة الليلي، لولاه لتاهوا ولما عرفوا درب العودة، كذلك القوافل في الصحراء ستتيه ولن تستطيع الوصول ببضائعها لولا هذا النجم الساطع الذي سيحدد الاتجاهات...

كذلك عرف إبراهيم، من التجار الذين التقى بهم، أن السفن في البحار تستفيد من هذا النجم لمعرفة الاتجاهات وللوصول إلى الموانئ والمرافئ الآمنة.

قال إبراهيم للنجم الساطع: «إنك لا شك مهم جدًا أيها النجم، لكن هل أنت الإله الواحد؟».

لم يجب النجم طبعًا، لكنه تلاشى مع أشعة الشمس.

كان هذا التلاشي جوابًا لإبراهيم.

الإله الواحد لا يتلاشى...

* * * *

ثم أشرقت الشمس، وأحس إبراهيم أن الظلام لم يتلاشَ حقًا ولم يتبدد فعلًا... أحس أن الظلام مستمر ما دامت الحيرة مستمرة، مادام لم يصل بعد إلى جواب. هل تكون الشمس هي الجواب، إنها تبدو واحدة فعلًا.

لا يعرف إبراهيم شمسًا أخرى في هذا العالم الذي يراه، وهي كبيرة وقوية، يعرف إبراهيم أنها مهمة للحياة وللزرع ولنضج المحاصيل...

«لكن هل يمكن أن تكون هي الإله الواحد؟» سأل إبراهيم السؤال

نفسه الذي سأله عن القمر والنجم الساطع...

ولم ينتظر إبراهيم الشمس، أن تنسحب، كان يعرف أنها ستفعل، انها ستغرب.

وكان يعرف أن إلهه الحق الواحد لا يمكن أن يغرب...

* * * *

لا أحب الآفلين

زادت حيرة إبراهيم، زاد قلقه! هل يعقل أن إلهه سيتركه دون دليل؟... هل يعقل أن هذا الظلام الذي هو غارق فيه سيستمر، وأن جبلًا لن يمتد لإنقاذه... هل يعقل أن الإله الحق الإله الواحد سيتركه في هذه الحيرة..

ظل إبراهيم يتلفت بين الجهات يبحث عن إشارة، عن رسالة، عن طريق يدله إلى الإله الحق...

وفجأة، التمع ضوء في رأس إبراهيم، حدث معه بالضبط كما سيحدث معكم عندما تبحثون عن زر الضوء الكهربائي وسط الظلام، وتضغطونه... فإذا بالضوء يطرد الظلمة كلها دفعة واحدة...

هذا ما حدث مع إبراهيم، كان يتعثر في الظلام، عندما عثر على زر الضوء وضغطه... وإذا بالنور يسطع فجأة دفعة واحدة في رأسه...

لقد وجد ما يبحث عنه...

وجد الإجابة عن أسئلته...

* * * *

اكتشف إبراهيم أنه يبحث في المكان الخطأ، ولهذا لم يكن يصل إلى جواب.

كان يدور بوجهه بين الاتجاهات المختلفة؛ شرقًا وغربًا، شمالًا ويمينًا...

وكان عليه أن يلتفت إلى رأسه.

هناك في رأسه، الدليل... والإشارة...!

* * * *

هل ستسألون، ماذا في رأسه، أي دليل هناك ترك الإله الحق فيه؟...

هناك في الرأس، توجد تلك (الأداة) التي جعلت من إبراهيم يكتشف كذب الآلهة وزيفها، جعلته أيضًا يصل إلى حقيقة أن هذا العالم لا يمكن أن يكون فيه إلا إله واحد فقط...

تلك الأداة في رأس إبراهيم قد تركها الإله الحق، الإله الواحد، لكي يصل الناس إليه، تركها في رؤوسهم ليستخدموها عندما يريدون الوصول إليه، تركها في رؤوسهم ليستخدموها مصباحًا ينير ظلمة الدرب، ويجدد لهم مفترقات الطريق، ويكشف العثرات والمطالبات التي قد تكون في هذا الدرب أو ذاك.

وهذه الأداة، هي التي يجب أن يلتفت إليها إبراهيم...

لأنها هي التي ستقدم له الجواب...

هل عرفتم هذه الأداة؟...

إنها العقل...

إنها السيد العقل!.

* * * *

الطريق إلى الله يمر من هنا

شعر إبراهيم أن العقل الذي جعله ينكر الآلهة ويكشف زيفها هوالذي سيوصله إلى الإله الحق.

شعر إبراهيم أن العقل الذي جعله يكتشف التوحيد ووضعه على أول الدرب هو الذي سيكمل معه الطريق...

جعل إبراهيم يساعده في التلفت، وسأله: «أين هو الإله الحق، الإله الواحد؟».

قال له العقل: هل تريد أن تراه بعينيك؟...

أجاب إبراهيم: «إن هذا هو ما يريده الجميع، أن يروا بأعينهم ليكونوا متأكدين»...

سأله العقل: «هل والدتك تحبك يا إبراهيم؟».

تذكر إبراهيم والدته وقد ترك البيت بالأمس وبات خارج المنزل للمرة الأولى، كادت دمعة إبراهيم أن تسقط من عينيه حنانًا واشتياقًا لوالدته وحنانها.

أجاب إبراهيم: «نعم، تحبني بالتأكيد».

سأله العقل مجددًا: وهل رأيت حبها بعينيك؟.

هل شاهدته مرة؟ هل شاهدت شكل حبها؟ هل رأيته بعينيك وهو يغدو ويروح؟

قال إبراهيم: بالتأكيد لا...

فرد العقل: ولماذا يا ترى إذن تثق أنها تحبك دون أن ترى شكل حبها لك؟

لم يفكر إبراهيم طويلًا، تذكر على الفور حنان أمه وسهرها عليه...

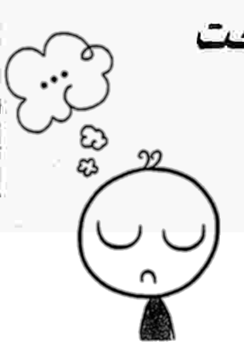
قال: لأنها طالما سهرت علي، وطالما دفأتني بحنانها، طالما قلقت علي، وطالما حرمت نفسها الراحة والشبع لتريحني وتشبعني...

قال له العقل: إذن أنت لم ترَ شكل حب أمك لك، لكنك لمسته وعرفته من آثاره فيك...

قال إبراهيم: بالضبط...

أجاب العقل: وهذا العالم كله من حولك، بشمسه وقمره وسمائه ونجومه، ببحاره وأنهاره وبحيراته وصحاريه، بليله ونهاره، بفصوله المتعاقبة، بحيواناته المختلفة، بثماره المتنوعة، بالإنسان فوق كل هذا، أليس أثرًا من آثار هذا الإله الواحد الحق؟! أليس كل ما في هذا العالم دليلًا على هذا الإله؟! بالضبط كما حنان أمك وسهرها دليل على حبها... كل ما في هذا العالم دليل على هذا الإله، ويحمل توقيعه وبصمته...

شعر إبراهيم أنه يرى العالم من جديد، شعر أن عينيه قد تفتحت على عالم هو كله دليل على هذا الإله الواحد المطلق...



قال له العقل: الإله العظيم الذي صنع العالم كله لا يمكن أن يوضع بين أربعة جدران...

هز إبراهيم رأسه موافقًا...

وقال له العقل أيضًا الإله الذي خلق لك العين لن تراه العين...، لقد وضعها فيك، ووضع كل الحواس الأخرى، لترى العالم، لا لتراه، وعندما ترى العالم فإنك سترى الدليل عليه بعقلك سترى توقيعه في كل مكان...

«الإله الحق لن يرى بالعين مطلقًا،... إنما تعرفه بالعقل»...

بالعقل وحده...

شعر إبراهيم بالنور يغمره، فكر أن النور الذي سطع في رأسه صار يمكن له أن يضيء العالم كله بكل ما فيه من ظلام.

شعر إبراهيم الآن بالراحة والطمأنينة، العقل أجابه عن تساؤلاته وطرد حيرته.

ذاق معنى السلام في داخله.

أحس إبراهيم بالحاجة إلى أن يظهر خضوعه لهذا الإله الحق.

ولم يجد وسيلة أفضل من أن يخـر راكعًا إلى الأرض،... وعندما مسّ برأسه الأرض، أحس أنه قد أخضع أفضل ما فيه - عقله - لهذا الإله، فالعقل هو الذي أوصله إلى الله، والله هو الذي أودع العقل فيه... والآن بما أنه أسلم نفسه للعقل الذي أوصله لله، أحس أن العالم صار يبدو أكثر إتقانًا، وأكثر كمالًا...

أحس أن كل شيء صار الآن في مكانه الصحيح...

على شفتيه وجد تلك الكلمات: «وجهت وجهي لفاطر السماوات والأرض مسلمًا حنيفًا وما أنا من المشركين»...

الآن وجهه صار في الاتجاه الصحيح. ملتحمًا بالأرض في خضوع للخالق العظيم، وقد أسلم نفسه للطريق الصحيح إلى الله... طريق العقل.

في سجوده والتحامه بالأرض، كان إبراهيم قد أغمض عينيه، لكنه شعر أنه يرى أفضل الآن، (لا نعرف بالضبط متى جاء الوحي الإلهي لإبراهيم... لكننا نعرف بالتأكيد أن الوحي لم ينزل إلا على (عقل) بحث عن الحقيقة ووصل إلى الإله الحق بنفسه... ثم جاء الوحي ليجد التربة مُهيأة).

* * * *

هذه التماثيل تشبه واحدًا أعرفُهُ

عاد إبراهيم إلى المدينة، لكنه لم يكن يركض كما كان أول مرة عندما اكتشف كذب تعدد الآلهة، كان يمشي على مهل، كان يرى العالم من جديد، كما لو كان اكتشافه الجديد قد جعل عينيه أقوى من قبل، كل حواسه صارت أقوى من ذي قبل.

لكن إبراهيم صار يعرف أيضًا أكثر من قبل صعوبة المهمة التي أمامه، كان يعتقد في البداية أن أهل مدينته وأهله الذين يحبهم سيكفّون عن الخطأ بمجرد أن يعرفوا أنه خطأ...

لكنه مع الوقت، بدأ يفهم أن الأمر أصعب؛ لأن الخطأ عندهم هو الصواب حتى لو كان خطأ، إنه كل ما ورثوه من آبائهم وكل ما تعلموه في أعمارهم وكل ما بنيت عليه حياتهم... ولن يقبلوا

أن يأتي (فتى) في مثل عمره ليقول لهم: إن الآباء والأجداد كانوا على خطأ...

دخل إبراهيم المدينة ساهمًا، نسي أن أهله كانوا قلقين عليه، لأنه لم يرجع أمس إلى البيت. ظل يمشي وهو يتأمل في وجوه الناس وفي تماثيل الملوك الذين تعاقبوا على الحكم، كان يعرف معظم هذه التماثيل جيدًا، ذلك أن والده كان قد صنعها، لاحظ شيئًا لم يكن قد تنبه له في هذه التماثيل.

عيناه صارتا أقوى بعد أن أسلم نفسه للعقل، والتحم بالأرض في الخضوع للإله الخالق العظيم، تنبه لشيء مشترك يربط بين هذه التماثيل رغم أنها تمثل آلهة مختلفة... ذكره هذا الشيء بشيء لم يستطع أن يحزره أول الأمر، أراد أن يكتشف الأمر الذي أخذ يلح عليه... ذهب إلى الهيكل حيث كل الآلهة وتماثيلها مرصوصة جنبًا إلى جنب يمكن له أن يقارن بينها كما يريد...

عندما دخل الهيكل كان بعض الناس يتعبدون، تركوا صلاتهم وتنبهوا لدخوله، لاحظ أنهم يتهامسون فيما بينهم وينظرون إليه، كان يعرف أنهم يتحدثون عنه، ذلك أن صيته انتشر في المدينة بعد ما حدث مع الكاهنة...

لاحظ إبراهيم الكهنة وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم ويرمقونه بنظرات تـنم عن الكراهية.

شتمته امرأة عجوز كانت تتعبد لواحد من الآلهة فلم يلق لها بالًا أول الأمر، ولما تمادت وأخذت تضحك الآخرين عليه التفت إليها بحدة وقال لها: «كفي يا عجوز عن هذا ألا تخافين أن تمسخي رجلًا أصلع له فأر في لسانه» فصرخت مرعوبة وركضت مبتعدة وتفرق الناس الذين كانوا قد تجمعوا حولها

وهم يتظاهرون أن الأمر لا يعنيهم...

أكمل إبراهيم طريقه في المعبد وهو يضحك في سره من غباء الناس وتصديقهم لكل ما يقال...

أخذ ركنًا بعيدًا في الهيكل وأخذ يتأمل تماثيل الآلهة، نعم إنه الحق، هناك شيء مشترك فيها، هناك شيء في ملامحها يذكره بشخص مألوف، أو شكل مألوف...

لم يعرف إبراهيم بالضبط من، أو ماذا، لكن الأمر ظل يطارده وظل يحاول أن يتذكر وهو يجول بين التماثيل وأعمدة الهيكل الضخمة...

ظل يدور... ومضى الوقت وقد سها إبراهيم عنه، إلى أن انصرف الجميع وأوشك الكهنة وخدم المعبد يغلقون الأبواب...

تسلل إبراهيم عندها وهو لا يزال يسأل: أين رأى هذا الوجه... الذي يراه في كل التماثيل...؟... أين...؟...أين؟.

* * * *

..الفصل الخامس..

الأجداد

وعندما وصل إبراهيم إلى البيت، وجد الكل قلقين عليه جدًا، كان والده قد بحث في كل مكان، لكن لم يدر في خَلَدِه أنه قد يذهب إلى الهيكل، وعندما دخل وجد صياح والده وغضبه؛ من قلقه، ودموع أمه؛ من هلعها بانتظاره...

ركض إبراهيم إلى حضن والدته ليحتمي من غضب والده، وبينما هو يحتضنها أغمض عينيه كما تفعلون أنتم عندما تحضنكم أمهاتكم، عندما فتحهما وجد نفسه أمام ما كان يبحث عنه طوال النهار، لقد وجد الشبه الذي لم يكن قد توصل لتحديده. كانت أمامه تلك الجداريات التي نحتها والده لجده الأكبر. كانت ملامحه واضحة، شديدة الشبه على الأقل في نظرة العينين بكل تلك الآلهة التي نحتها والده وملأ بها البيت وشوارع المدينة وزوايا المعبد...

كان والده يقدس جده فجعل ملامحه موجودة في تماثيل الآلهة، كان يجعل الناس يعبدون الآلهة، وفي الوقت نفسه يعبدون الأجداد، حتى ولو كانوا غير متنبِّهين لذلك...

كان الأجداد، والطاعة للأجداد، والإمتثال لأوامر الأجداد، واتباع

تقاليدهم، وأعيادهم بمعتقداتهم، يمثل شيئًا أساسيًا في حياة أهل المدينة...

كان الأجداد لا يزالون على قيد الحياة، حتى لو كانوا قد ماتوا منذ زمن طويل، كانوا لا يزالون موجودين، ما دامت أوامرهم موجودة ولم تمت، ما دام كل ما اعتقدوا به وآمنوا به ظل أولادهم وأحفادهم يؤمنون به ويقدسونه...

كان (الأجداد) في كل مكان، وفي المعبد الذي بنوه هم، حيث تعبد الآلهة التي عبدوها هم... كان للأجداد سلطة كبيرة، لم تكن واضحة للعين مثل سلطة الملك أو سلطة رجال الدين... لكنها كانت قوية جدًا، وتكاد تسيطر حتى على الملك نفسه وعلى رجال الدين...

كانت سلطة الأجداد قوية جدًا، مثل سور المدينة المحصن، وكانت هذه السلطة تحصن أهل المدينة من أي محاولة لتغييرهم، كانت تمنع أي محاولة لتوضيح أنهم على خطأ، لم يكن من الممكن أن يكونوا على خطأ؛ ما داموا يتبعون الأجداد. الأجداد كانوا على صواب، كانوا دومًا على صواب، وما دام أهل المدينة يتبعون الأجداد ويقلدونهم فهم على صواب أيضًا، ولن يصدق أحد (فتى) صغير السن يتعدى على الأجداد وما تركوه للأحفاد...

هز إبراهيم رأسه مفكرًا، إنه لا يعرف إن كان والده قد تنبه لهذا، إنه يخلط بين ملامح (الجد) و(الآلهة)، كما أنه لا يعرف إن كانت ملامح الجد هي التي دخلت في تماثيل الآلهة. أم أن العكس هو الذي حدث، ودخلت ملامح الآلهة في الجد...

لكنه يعرف الآن أن أهل مدينته لا يعبدون تلك التماثيل والآلهة فقط.

إنهم يعبدون الأجداد أيضًا، بل إنهم لا يدافعون عن عبادة الآلهة ويتمسكون بها إلا لأن الأجداد عبدوها...

إنهم يعبدون الأجداد أيضًا، إنهم يعبدون (الأسلاف).

* * * *

والدي العزيز أحبك ولكن.....

تنبه إبراهيم لوالده وهو يسأله بغضب وصياح... أجبني أين كنت؟.

قال إبراهيم: كنت أبحث عن الإله الحق كما أخبرتني أن أفعل.

نظر إليه والده بسخرية، والغضب لا يزال يتطاير من عينيه: وهل وجدته؟.

رد إبراهيم: نعم، لقد فعلت.

استمرت السخرية في صوت والده، ولماذا لم تأت به معك إلى هنا ما دمت قد وجدته أخيرًا؟.

نظر إبراهيم إلى والده، ركز عينه في عينيه...

قال إبراهيم: لأن الإله الذي اكتشفت وجوده في هذا العالم هو إله حق؛ إله حقيقي... ثم سكت قليلًا، وأكمل بصوت أعلى: «إنه إله لا يمكن وضعه بين أربعة جدران.....».

سكت والده قليلًا وقد هزته الكلمات، لكنه عاد إلى السخرية وهو يسأل إبراهيم: وأين وجدته يا ترى؟. دعنا نذهب جميعًا لنراه...

أجاب إبراهيم: لا يمكنك أن تراه يا أبي...

رد والده باستنكار: «حقًا!... ولماذا تستطيع أن تراه أنت وأنا لا أستطيع؟. عيناي قويتين لا تزال وبصري لا يزال حادًا أيها الولد».

قال إبراهيم: «لأنه لا يُرى بهاتين العينين يا والدي».

عاد والد إبراهيم إلى السخرية: «لماذا لا يُرى بهاتين العينين؟. إذن بماذا؟ هل ظهرت لك عين ثالثة ورأيت إلهك بها؟»... وأخذ والد إبراهيم يتظاهر بأنه يبحث عن العين الثالثة في خلفية رأس إبراهيم وظهره وتحت ملابسه.

«لا إنها ليست هنا، لعلنا نجدها هنا، لا ليست هنا، ربما هنا..؟» كان يسخر من كل شيء بينما وقف إبراهيم مستسلمًا ليد والده وهو يقبله، كان منكسرًا حزينًا وهو يرى والده يتصرف هكذا.

«إنني آسف من أجلك يا أبي، حقًا إنني آسف»، قالها ونبرة صوته لا تزال قوية ولكن فيها حزن حقيقي.

رد والده بحدة: «لِمَ الأسف يا ولد؟».

قال إبراهيم: «لأن هذا الإله لا يُـرى بالعين، بل بشيءٍ آخر تمامًا».

أجاب والد إبراهيم باستنكار: «وأنت وحدك تملك هذا الشيء؟!».

قال إبراهيم: «بل الجميع يا أبت، الجميع قطعًا، لكن للأسف إما إنهم لا يعرفون كيف يستعملونه أو أنهم لا يريدون أن يستعملوه. ومن أجل هذا أنا أشعر بالأسف».

قال والده بتحد: «أخبرنا إذن ما هو هذا الشيء الذي لا نعرف أنه موجود فيناً ولا نعرف كيف نستعمله؟».

سكت إبراهيم قليلًا، ووجد أن أنظار كل من في البيت قد اتجهت نحوه...

قال إبراهيم بصوت تعمد أن يكون عاليًا: «إنه العقل!»...

قال والده وهو لا يزال يحاول استفزازه: «العقل؟!».

قال والده وقد غلب الغضب على السخرية في صوته: «ماذا تقصد؟ أننا نجهل وجوده؟ أو نجهل كيف نستعمله؟. هل رأيت واحدًا منا مجنونًا؟. هل رأيتنا ندور في الشوارع ونحدث أنفسنا؟».

قالِ إبراهيم وصوته يرتفع: «لا،لم أقصد هذا، لكن لو كنتم فعلًا تعرفون كيف تستعملونه، لما عبدتم تماثيل صماء وبكماء لا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا، صنعتموها بأيديكم».

قال والده بصوت منخفض: «كُفّ عن ذكر الآلهة...».

قال إبراهيم: «ولو كنتم تعرفون كيف تستعملونه لعرفتم أن عالمًا عظيمًا كالذي نعيش فيه لا يمكن أن يكون قد صُنع إلا من إله واحد؛ إله واحد ولكن حقيقي وقادر على صنع عالم كهذا، وليس مثل كل تلك الآلهة المزيفة غير القادرة على صنع نفسها حتى...».

كرر والده بالصوت المنخفض نفسه ولكن الغضب كان باديًا على وجهه: «كُفّ عن ذكر الآلهة يا ولد...».

قال إبراهيم: «لو كنتم تعرفون كيف تستخدمونه، لرأيتم توقيع الإله وبصمته في كل مكان من هذا العالم، لو كنتم تعرفون كيف تستخدمون العقل لرأيتم توقيع الإله العظيم في الشمس، لا أن تصنعوا لها تمثالًا وتعبدوها، فالإله الذي خلق هذه الشمس، كذلك القمر... كذلك النجم... كذلك الليل

والنهار والفصول المتعاقبة والخصب والثمار والحصاد، كلٍ منها يدل على الإله العظيم، لو أنكم استخدمتم العقل... لكنكم بدلًا من استخدام العقل صنعتم تماثيل لكل هذه الأشياء وركعتم لها».

كرر والده... وقد بدأ صوته يرتفع، والشرر يتطاير من عينيه: «كف عن ذكر الآلهة يا ولد...».

قال إبراهيم وهو ينتقل من الدفاع إلى الهجوم؛ من الرد على الأسئلة إلى الأسئلة: «لكنني أعلم لماذا لا تستخدمون هذا العقل، ولم أصلًا لا تعرفون وجوده...»...

سكت والده وهو لا يتوقع من إبراهيم إلا مزيدًا مما يعدّه إهانة للآلهة...

قال إبراهيم: «يمنعكم من استخدام هذا العقل، أو عدم معرفتكم لوجوده، أن بينكم وبينه حاجزًا، يمنعكم من الوصول إليه، بل يمنعكم حتى من رؤيته...».

قال والد إبراهيم بحيرة: «حاجز!. أي حاجز تقصد؟».

رد إبراهيم وهو يشير بإصبعه إلى الحائط: «هذا هو الحاجز».

التفت الجميع وهم يتابعون إصبع إبراهيم إلى المكان الذي يشير إليه.

كانت إصبعه تشير إلى لوحة الجد المنحوتة بالمرمر الصقيل على الحائط.

* * * *

ليس بالإمكان أبدعُ مِمّا كان

«الحاجز هو الأجداد، الحاجز هم هؤلاء الأجداد الذين لم يموتوا حقًا، وإنما لا يزالون يعيشون في رؤوسكم، يتحكمون فيما تفعلون، وفيما تؤمنون به، وفيما تعبدون من الآلهة، يتحكمون في عاداتكم وفي تقاليدكم، يحكمون عليكم بألا يقبلوا أي فكرة جديدة، يحكمون عليكم بأن تحاربوا كل ما لم يعرفوه، وكل ما لم يألفوه...».

كان وقع كلمات إبراهيم شديدًا على الجميع، فاجأتهم كلماته بشدة، كانوا تعودوا كلامه عن الآلهة وسخريته منها، أما الآن وهو يتحدث عن الأجداد، فقد كان الأمر جديدًا وقد صدمهم تمامًا... كانت أفواههم مفتوحة

جميعًا من شدة المفاجأة... ولم يتكلم أي أحد منهم... لا والده، ولا والدته، لكن جدته أخذت تصلي طالبة من الآلهة أن تسامح إبراهيم لأنه صغير!!.

أكمل إبراهيم: «الأجداد هم السبب في كونكم لا ترون ولا تبصرون؛ لأنكم لا تستعملون عيونكم، ولا رؤوسكم بل تستعملون عيونهم هم، ورؤوسهم هم، ترون العالم كما رأوه هم، ولا تتصورون أبدًا أنهم - ربما - كانوا على خطأ، أو أن الدرب الذي رسموه لكم قد يكون ضلالًا»...

قال والد إبراهيم وهو يوشك أن ينفجر: «كف عن تماديك يا ولد...». سأل إبراهيم: «قل لي يا والدي، هل فكرت يومًا أن الأجداد قد يكونون سيئين؟».

أجاب والد إبراهيم بحدة: «لا طبعًا، لا».

«لماذا؟. الا يمكن أن يكونوا قد أخطأوا؟، الا يمكن أن يكون كل ما فعلوه وآمنوا به خطأ؟» قال إبراهيم وهو يستدرج والده الذي رد بوضوح: «لا، هذا غير وارد أبدًا، الأجداد لا يخطئون»... سأل إبراهيم مجددًا: «ولماذا يا ترى؟»

قال والد إبراهيم بحدة: «لأن الصواب والخطأ؛ الصواب هو ما فعلوه، والخطأ هو ما رفضوه...».

قال إبراهيم: «إذن كما قلت أنا، إنهم يفكرون بدلًا منكم، يرون العالم بدلًا منكم وما يرونه يجبرونكم على رؤيته بعيونهم، إنهم أموات نعم، لكنهم أكثر حياة منكم، لأنكم موتى... موتى بطاعتكم للموتى...».

قال والده بصوت مرتفع: «اسمع يا ولد، لقد سكت على تماديك كثيرًا، تركناك تستهزئ بالآلهة وتسخر منها، كنت أقول إن الآلهة ستتكفل بإسكاتك أو هدايتك، أما الآن فأنت تهزأ بالأجداد وتنتقدهم، وهذا خط أحمر، ولن أسمح لك بتجاوزه أبدًا...».

رد إبراهيم: «... هذا ما ظننت، سيغضبك انتقادي للأجداد أكثر من انتقادي للآلهة أو هزئي بها!».

اقترب والده منه بعصبية حتى إن والدته ظنت أنه سيضربه، وركضت لتحول بينهما، لكن والده أمسك به من ثوبه وشدّه وهو يكز على أسنانه: «لأن الأجداد هم الذين صنعوا لنا مجدنا. هذه المدينة العظيمة التي تعيش فيها، لم يصنعها إلا هؤلاء الأجداد، هذه المدينة وتاريخها الطويل العريض، والناس الذين يقصدونها من كل مكان، لم يصنعها إلا الأجداد، إلا أسلافنا العظام...».

قال إبراهيم بنبرة فيها أمل: «... وماذا لو أننا صنعنا مجدًا آخر يا والدي؟».

قال والده بنبرة فيها حسم: «ليس بالإمكان أبدع مما كان».

وكان صوته ضخمًا وعاليًا كما لو أنه يردد كلمة قالها قبله الألوف وسيقولها بعده مئات الألوف.

سأل إبراهيم: «ماذا لو كان هذا المجد الذي تتحدث عنه مجدًا مبنيًا على زيف وكذب وخداع؟ ماذا لو أن الأجداد قد كذبوا؟. هل فكرت بهذا؟».

زمجر والد إبراهيم: «كف عن هذا...».

«أقول لك الآن يا والدي إنهم على خطأ، وكانوا على ضلال، وإنهم أيضًا كانوا كاذبين».

قال والده بصوت متحشرج: «اخرس... إياك أن تعيدها مرة أخرى».

«كانوا على خطأ» كرر إبراهيم بثبات، كما لو أنه يريد من والده أن يستيقظ من غفلته...

قال والد إبراهيم بتحدٍ: «أعدها مرة أخرى وسترى...».

قال إبراهيم ثم أعاد: «كانوا على خطأ... كان الأجداد على خطأ».

لم يرد والد إبراهيم بكلمة، بل رفع يده عاليًا، وهوى بها على وجه إبراهيم.

كانت صفعة قوية، ألقت إبراهيم أرضًا، فغامت عيناه لحظاتٍ فلم

ير شيئًا، غير السواد...

سمع صوت أمه وهي تبكي بشدة، وسمع والده وهو يقول: «من يعش هنا في بيتي، تحت سقفي، فإنّ عليه أن يحترم الأجداد، عليه أن يظهر ذلك عبر طاعتهم والامتثال لأوامرهم... وإذا لم يفعل ذلك فليرحل».

قالها بصوتٍ عالٍ: «فليرحل!».

وعندما فتح إبراهيم عينيه، كان أول ما وقع بصره عليه هو تلك اللوحة المنحوتة على الجدار: لوحة الجد.

خُـيل إلى إبراهيم، وأثر الصفعة المدوية لا يزال يؤلمه وصوتها يرن في أذنيه، إنه لمح ابتسامة ساخرة في نظرات الجد.

تمتم إبراهيم، وهو لا زال مُلقى على الأرض: «لكنهم أيضًا على خطأ... الأجداد على خطأ».

ظل إبراهيم مريضًا في سريره أيامًا، لم تكن الضربة على خده هي التي أنامته في السرير رغم أنها آلمته كثيرًا، إلا أن ألمه كان أشد في داخله، في روحه... لقد كان عذابه من شيء آخر، لقد جعلته تلك المحاورة الساخنة مع والده، والتي انتهت بالصفعة على خده، جعلته يواجه الحقيقة أكثر من قبل، إنه يحب والده، ويحب كل أفراد عائلته أيضًا، كان يريد أن يوفق بين حب أهله وحب الحقيقة، كان مستعدًا على الدوام أن يبقى معهم، يحاول أن يوقظهم من غفلتهم، أن يجعلهم يرون الحق، يفتح أعينهم... يزيح عنها تلك الخرقة...

لكن الآن، فوالده هو الذي لا يريده أن يبقى معهم.

لقد أخبره بصراحة: إما أن تطيع الأجداد، ويعني ذلك أن تتظاهر

كذبًا بتصديق الكذب...

أو أن ترحل...

حاولت أمه أن تخفف مما قاله والده، فقالت له: إنه لم يقل ذلك إلا لأنه كان غاضبًا، لكنه كان يعرف والده جيدًا، كان يعرف تقديسه للأجداد، لقد كان يعني ما يقول...

«إما أن تطيع الأجداد، أو أن ترحل».

ظل ذلك عالقًا في ذهنه، مثل أثر الصفعة في وجهه...

وعندما تحسنت حالته قليلًا بعد عدة أيام، خرج ليتمشى قليلًا في الجوار...

سأله الفتيان في الحي عن ذلك الأثر الذي في خده. كان واضحًا جدًا أنه أثر لصفعة.

سألوه: «من؟».

قال إبراهيم، بلا تردد: إنه جـدّي...



..الفصل السادس..

الفأس في الراس

عندما حلّ الربيع وصفا الجو، بعد شتاء طويل وقاس، عادت الطيور التي كانت قد غادرت مع الخريف، كان إبراهيم يحبها كثيرًا، ويترك لها بقايا الطعام على السور، ويتأملها ويناغيها، هذه المرة، أحس أنها تعرف عن العالم خارج مدينته أكثر مما يعرف هو...

سألها بينما كانت تلتقط الحبوب التي تركها لها، عن هذا العالم الآخر الذي رحلت ورجعت منه، كيف هم الناس فيه، كيف هي المدن هناك، وهل يعبدون تلك الأصنام الكاذبة كما يفعل أهل مدينته؟ وهل يطيعون الأجداد حتى لو كانوا على خطأ؟. أم أنهم اكتشفوا - كما فعل هو- أن تلك الآلهة مجرد أكاذيب مزيفة، واكتشفوا أن لديهم في رؤوسهم أداة هي العقل تمكنهم من فهم العالم؟...

لم ترد الطيور على أسئلة طبعًا، وإنما التقطت الحبوب بمناقيرها وطارت...

لكن طيرًا واحدًا، ظل يتأمل إبراهيم طويلًا، قبل أن يلتحق بأقرانه...

أحس إبراهيم أن الطير يريد أن يقول له: «لم لا تذهب أنت هناك وتجد الأجوبة بنفسك؟».

* * * *

ازرع بذرةً واتركها تنمو

ومع تقدم فصل الربيع، لاحظ إبراهيم ظهور صف أخضر من النباتات في حديقة المنزل الصغير.

كان قد وضع بعض البذور هناك في الخريف الماضي وسقاها مرة أو مرتين، ثم ما لبث أن انشغل بأمور أخرى، لقد نسيها تمامًا، إلى أن جاء الربيع، وظهر ذلك الصف الأخضر الزاهي...

فكر إبراهيم بذلك طويلًا، لقد ترك البذرة هنا، لم يسقها ولم يهتم بها كما يجب، لكن القوانين الموجودة في الكون التي وضعها الإله الحق، تكفلت بنمو تلك البذور... وها هي اليوم تشكل صفًا أخضر زاهيًا من نباتات صغيرة، ستجعلها القوانين نفسها أكبر وأكبر...، وأكبر...

فكر لو أنه رحل من المدينة، وعاد إليها بعد عشر سنوات مثلًا، لربما وجد بذوره التي تركها قد صارت أشجار كبيرة، وتنتج فواكه مثمرة...

جعله هذا يفكر في كل شيئ من جديد، قد تكون كلماته مع والده ومع أهل مدينته مثل تلك البذور والتي ظلت نائمة وكبرتها، وجعلتها تشق التربة لتعلن عن نفسها..

فكر أن كلماته قد تكون مثل تلك البذور، في البداية لا شيء غير الرفض والاستهزاء والسخرية وعدم الاهتمام. لكن من يدري؟

فقد ظلت البذور نائمة في عمق التربة حتى ظهرت ونمت فجأة، قد تحفر كلماته في أعماق شخص ما، ولا يبدو عليه أي شيء الآن، إلى أن يأتي وقت ما، وتظهر فجأة، ليعلن أن هذه الأصنام كاذبة، وأن الحق هو إله واحد حقيقي، حتى لو كان الأجداد يرون شيئًا آخر...

قرر إبراهيم أنه إذا رحل فعليه أن يترك بذرة، بذرة لرفض الأصنام، بذرة تكشف ضلال الأجداد وأخطاءهم، بذرة تكشف للناس أن لديهم في رؤوسهم (عقل) عليهم استخدامه...

فكر إبراهيم أن ليس عليه أن ينتظر البذرة ويراها وقد يأتي آخر ليحميها، قد تكون كل الظروف مواتية لنموها كما كانت الظروف مواتية للبذور التي تركها في الحديقة...

حسم إبراهيم أمره، سيرحل، نعم سيرحل ما دام والده مصرًا على طاعة الأجداد...

وسيرحل لأنه يريد أن يخبر العالم كله بما اكتشف.

وسيرحل لأنه يريد أن يكتشف مزيدًا عن هذا العالم...

لكن قبل هذا كله، عليه أن يترك بذرة في رؤوس أهل مدينته...

بذرة كبيرة...

بذرة قوية...

بذرة لا تنسى...

وربما ستتكفل قوانين الإله الحق بنموها ونضجها...

* * * *

مرت الأيام وإبراهيم يبحث عن طريقة ليجعل بذرته أكبر ما يمكن، كان يريدها بذرة تصمد أمام الظروف الصعبة، تبقى في ذاكرة أهل مدينته، تصدمهم تدهشهم تجعلهم يضطرون للتفكير... وعندما يضطرون للتفكير قد يجدون العقل.

أعدّ إبراهيم خطة متقنة لوضع البذرة.

فقط كان ينتظر الموسم المناسب لها...

يوم العيد...

* * * *

... عندما جاء يوم العيد، استعد إبراهيم لتنفيذ خطته..

كان كل أهل المدينة، كلهم من دون استثناء، يخرجون للاحتفال بالعيد على ضفاف النهر... يحضر الملك وحراسه وحاشيته ووزراؤه، كما يحضر كل سكان المدينة، تذبح الذبائح، وتقدم أشهى أنواع الأطعمة...

وكان رجال الدين كلهم يذهبون إلى هناك بالتأكيد، للمشاركة في الاحتفال، وإقامة بعض الطقوس، وأيضًا للتملق للملك كعادتهم، وللتمتع بما لذّ وطاب..

كانت المدينة قد فرغت من ناسها، كلهم ذهبوا للاحتفال، وبدت الشوارع فارغة مهجورة.

وكذلك ذهب حتى حُـراس المعبد للمشاركة في الاحتفال...

كان المعبد فارغًا...

وهذا ما كان ينتظره إبراهيم...

* * * *

خرج إبراهيم من البيت ولم يره أحد، لم يكن هناك من يمكن أن يراه من أهل المدينة، فالكل على ضفاف النهر حيث العيد والاحتفال به...

كان يحمل معه عدته التي سينفذ خطته بها...

كان يحمل معه العدة التي سيزرع من خلالها البذرة في رؤوس أهل المدينة...

هل تعرفون ما هذه العدة؟

إنها عدة بسيطة جدًا،... مكونة من آله واحدة فقط، سيحتاجها أي فلاح من أجل زرع أي بذرة...

هل عرفتم ما هي...؟

كان إبراهيم قد أخفاها بإتقان بانتظار ذلك اليوم، وها هو يحملها معه ويذهب لتنفيذ خطته.

إنها الفأس...

كل عدته كانت فأسًا واحدًا فقط...

لكن كانت معه أفكار قوية... ستزرع تلك البذور...

* * * *

للفأس فوائد كثيرة

ربما تسألون، ماذا يفعل إبراهيم بذلك الفأس؟... هل يريد حقًا أن يزرع بذرة كما يفعل أي فلاح؟ يقلب الأرض بالفأس أو يحفر الأرض بالفأس ثم يضع البذرة فيها؟

لكنّا قلنا: إن إبراهيم يريد وضع البذرة في الرؤوس!

فهل يريد أن يستعمل الفأس في فتح رؤوس الآخرين؟!

ماذا يمكن أن يفعل إبراهيم بالفأس؟

* * * *

الفأس أداة مفيدة جدًا، لكن فائدتها لا تقتصر على الزراعة وحراثة الأرض وتهيئتها لاستقبال البذور...

للفأس فوائد أخرى.

ذلك أن الفأس، بحافته الحادة، يمكن أن يكون (أداة هدم) مهمة جدًا.

فقد اكتشف إبراهيم أن الهدم خطوة مهمة من أجل البناء...

لا تستطيع أن تبني، إن لم تهدم، لابد أن تهدم، بذرة (الهدم) هي التي تمهد للبناء...

ومن أجل أن يمهد للفكرة الجديدة، للإيمان بالإله الحق، كان لا بد من أن يهدم الإيمان بالآلهة المزيفة...

من أجل بذرة الإيمان الجديد، كان لا بد أن يوجه ضربة للإيمان العتيق...

وكان الفأس عدته في الخطة من أجل تحقيق ذلك.

* * * *

وصل إبراهيم إلى المعبد، كانت الأبواب مغلقة، ولكنه دفعها فقط فانفتحت أمامه...

كان المعبد خاليًا تمامًا، لا ناس تتعبد، ولا رجال دين ولا حراس ولا بخور ولا ذبائح...

كان المعبد رغم كبره، خاليًا تمامًا إلا من تلك الأوثان الضخمة الزائفة على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها...

كانت تقف صماء بكماء دون حراك، كما عهدها إبراهيم دومًا.

وقف إبراهيم وسط المعبد، تأمل تلك الأوثان الشاهقة وقرر أن يلعب معها قليلًا قبل أن ينفذ خطته...

صرخ بأعلى صوته: «أيتها الآلهة، هل تسمعينني أم أنك طرشاء؟». ردت الالهة: «طرشاء... طرشاء»...

كان صدى صوته يردد الكلمة الأخرة، فيما بدا أنه رد الآلهة.

قرر أن يسألها سؤالًا محرجًا آخر.

«هل أنت حقيقة أم أنك كذب؟».

ردت الآلهة: كذب...كذب.

ابتسم إبراهيم، هذه الآلهة الغبية تعطيه الأجوبة التي يجب أن يعرفها كل الناس...

وعاد من جديد يسأل: «هل لك وجود... أم أنك محض عدم؟».

رد الصدى في كل مكان: «عدم... عدم».

رفع إبراهيم صوته أكثر الآن: «أيتها الآلهة المزيفة، اعلمي الآن أنه في هذا العالم لا يوجد سوى إله واحد...».

رفع إبراهيم صوته أكثر الآن: «أيتها الآلهة المزيفة، اعلمي

الآن أنه في هذا العالم لا يوجد سوى إله واحد...».

رددت أركان المعبد الضخمة الكلمة: «واحد... واحد».

أحس إبراهيم أن الصدى هذه المرة أعلى من كل المرات...

أحس إبراهيم أن العالم كله في تلك اللحظة كان يريد تلك الكلمة «واحد... واحد».

راقب إبراهيم المعبد وصدى الكلمة يتردد في أرجائه، قال في نفسه: الآن كفى لعبًا، الآن سيكون ذلك حقيقة.

وأمسك فأسه بقوة.

* * * *

نظر إبراهيم إلى الأوثان، كانت مرتبة بشكل صفوف متواجهة، فكر إبراهيم أنه لا بد أن يقطعها من جذورها؛ لكي تنبت البذورٍ؛ عليه أن يبعد ويزيح كل الأدغال، كل تلك الأوثان كانت أدغالا تمنع أي بذرة جديدة من النمو. كل الأفكار التي كان الناس يؤمنون بها؛ من طاعة للأجداد وإيمان بآلهة مزيفة، كانت يجب أن تُقطع، أن تـُجتث، لكي تتمكن البذرة الجديدة من النمو.

بذرة العقل الذي سيشير نحو الإله الواحد الحق.

أمسك بالفأس وتأمل حافته الحادة.

سيقطع أولًا؛ من أجل أن يستطيع أن يزرع البذرة، سيهدم من أجل أن يبني...

وأمسك بفأسه، ورفعه عاليًا...

* * * *

خبر عاجل: الآلهة تتساقط تباعًا...

ضرب إبراهيم قاعدة التمثال، كما لو أنه يريد أن يقطعه من جذوره، إنه يريد أن يحطمه فقط، يريد أن يسقطه تمامًا، ضربه على قاعدته ليجعله يهوي، وبالذات ليجعله يسقط على الإله المجاور فيسقطه معه...

ضرب إبراهيم قاعدة التمثال وهو يصيح: «خذ أيها الإله (أنكي)... لطالما تمنيت أن أفعل بك ذلك أيها القبيح».

ثم توجه إلى صف آخر من الآلهة، وضرب قاعدة أول إله فيها وهو يصيح: «وأنت أيها الإله (نرغال)... هل كنت تتوقع هذا مني أنا بالذات؟».

ثم ذهب إلى صف آخر من الآلهة، ووجد هناك الإله (إنليل) الابن المُدلل للإله الكبير، وضربه في قاعدته ضربة قوية وهو يقول: «خذ يا مدلل وقل لوالدك: إني فعلت هذا بك... وليريني ما يستطيع فعله».

ابتعد إبراهيم ووقف على بعد مسافة في بداية القاعة الرئيسية، كما توقع كان كل تمثال يسقط على التمثال المجاور، ويسقطه أيضًا، وهكذا كان يسقط صف الآلهة كله من مجرد ضربة على قاعدة أول إله يقف في الصف.

وقف إبراهيم يتأمل المشهد وقد فتح فمه، كان مشهدًا رائعًا ومذهلًا، كانت الآلهة تتساقط وتتهاوى كما لو أنها كانت من ورق. كان هذا ما يريده إبراهيم بالضبط؛ أن يثبت أنها أضعف مما يتصوره الناس، أن يثبت أنها هشة جدًا، ويمكن إزالتها بسهولة، بمجرد فأس، كان يريد أن يثبت أنها ليست سوى أكاذيب استمدت

قوتها من تصديق الناس لها لا أكثر ولا اقل، وبمجرد ضربة واحدة على قاعدة تمثال واحد، تداعى صف كامل من الآلهة.

كان المشهد جميلًا جدًا، ظلت الآلهة تسقط تباعًا، يمينًا وشمالًا، واحدًا تلو الآخر، وكانت تحدث صوتًا هائلًا عند سقوطها، صوتًا يشبه الأواني الفارغة عندما تسقط وتتحطم... وكان إبراهيم يعرف أن هذه الآلهة فارغة حقًا، هشة وسهلة الكسر حتى لو كانت منحوتة من المرمر...

كان كل إله يسقط ويتحطم، يتطاير من حطامه الغبار، كل ما يبقى منه هذا الغبار...

بعد قليل سكن المشهد، وهبط الغبار الذي أحدثه تحطم الآلهة، وانشق المشهد عن ذلك الإله الكبير في الوسط الذي تركه إبراهيم - حسب الخطة - منفردًا دون أن يضربه...

اقترب إبراهيم من الإله الكبير وبيده فأسه، قال إبراهيم للإله الكبير (آن): «أنا أعرف أنك لا تخاف من هذا الفأس».

«لا لأنك قوي، بل لأنك لا تسمع شيئًا ولا تبصر شيئًا ولا تفقه شيئًا مما دار أمامك الآن».

«مع ذلك لن أفعل شيئًا لك أيها العدم».

«لكن لا حبًا بك، ولا كرامة لك...».

«إنما اريد أن أورطك معي، لعلهم يضطرون لاستخدام عقولهم» قالها وهو يتسلق على الإله الكبير، وصل إلى عنقه الغليظ، وهناك علّق الفأس.

ونزل وهو يقول: «أداة الجريمة الآن في حيازتك، أيها الإله

المزيف... فهل سيجرؤون على اتهامك؟».

* * * *

انتهت خطة إبراهيم هنا، كان يمكنه أن يخرج على الفور، لكنه كان يريد أن يستمتع بمشاهدة وقع الصدمة على وجوه رجال الدين وكهنة المعبد عندما يدخلون فيجدون آلهتهم حطامًا يتطاير منها الغبار...

اختبأ إبراهيم في ركن ركينٍ قرب الباب، وهو يتوقع حضور الكهنة بعد انتهائهم من الاحتفال...

* * * *

لم يمض وقت طويل حتى اقترب صوت الكهنة وسمعهم إبراهيم بوضوح من مخبئه ...

«أوه، لقد كان طعامًا لذيذًا...»، «لقد أكلت إلى أن صرتُ غير قادر على الحركة الآن...»، «أوه، أين السرير؟ أريد أن أنام الآن، وفورًا...».

سمعهم إبراهيم وهو يعرف أنهم سيرون الآن ما سيجعلهم ينسون الطعام والنوم، ربما ينسون حتى أسماءهم...

* * * *

فتح واحد من الكهنة الباب، راقبه إبراهيم وهو يفعل، في البداية كانت نظرة من عدم الفهم تبدو عليه، لم يفهم لماذا يبدو المعبد فارغًا من الآلهة التي كانت تملؤه قبل ذهابهم للاحتفال.

أولًا ظهر عدم الفهم على وجه الكاهن الذي امتد خلف الباب.

ثم الذهول.

ثم صرخ صرخة طويلة، وسقط مغشيًا عليه، امتدت وجوه الكهنة بعده، وبدر منهم الشيء نفسه، أولًا عدم الفهم، ثم الذهول، ثم صرخة، ثم سقوط...

ضحك إبراهيم في سره، لقد سقطوا كما سقطت أوثانهم، وتسلل من مخبئه ليخرج لكنه لاحظ أنهم تكوموا واحدًا فوق آخر، وأن الكاهن الأول سيموت اختناقًا على الأكثر...

عدل إبراهيم من أوضاعهم، وهو يقول: «أعتقد أني سأراكم بعد قليل عندي في البيت...».

وخرج من المعبد...

* * * *

بعد قليل تحقق ما توقعه إبراهيم، فقد سمع جلبةً عند الباب وانتبه إلى بعض الكلمات التي تقال من قبل أصوات غاضبة: «إبراهيم، إنه حتمًا إبراهيم» كانت الأصوات الغاضبة تردد.

كان إبراهيم يدرك ما حدث، لقد استفاق رجال الدين من ذهولهم، وعرفوا أنه لا بد أن يكون هو وراء ما حدث، خاصة أنهم ربما يكونوا قد تذكروا أنه لم يحضر الاحتفال خارج المدينة، وأسرعوا يؤلبون الناس الذين صدمهم منظر آلهتهم المحطمة وخرجوا يطالبون بعقابه...

سرعان ما دقت الباب يد غاضبة، وأسرع والده يفتح الباب وهو لا يفهم ما حدث، أما أمه فقد بدا عليها الخوف والقلق، ربما هو قلب الأم الذي لا يخطئ، وربما كانت قد سمعتهم ينادون باسمه.

سمع إبراهيم صوت واحد من الكهنة وهو يخاطب والده دون أن يلقي عليه التحية: «لقد تجاوز ابنك كل الخطوط الحمراء،

سبق وحذرناك من أن تتركه يتمادى»...

رد والد إبراهيم: «إبراهيم! ماذا فعل هذه المرة؟».

رد عليه كبير الشرطة: «إننا نريده حالًا، وستفهم ما حدث عندما تذهب بنفسك إلى المعبد...».

لم يفكر إبراهيم في الهرب، لو أنه كان يريد الهرب لفعل ذلك بعد أن حطم الآلهة فورًا، لكنه كان يعتقد أن أهم جزء من ترك البذرة هو أن يواجه الناس بما حدث.

أسرع إبراهيم يحتضن والدته وجدته ويودعهما، كان يعرف أنه قد لا يراهما بعد الآن، لم تفهم أمه تمامًا ما حدث لكنها أجهشت بالبكاء وقد حدست أن أمرًا خطيرًا قد وقع...

ذهب إبراهيم وقبل يد والده وقال له: «إنني أحبك جدًا يا أبت، تأكد من ذلك، ولكن تأكد أيضًا أن الأجداد على خطأ»...

قال هذا بينما كان رجال الشرطة يسحبونه من ثيابه، وسرعان ما وجد إبراهيم نفسه مقيدًا ومحمولًا على الأكتاف كان الشارع ممتلئا بالناس، وهم يصرخون ويسبون ويطالبون بقتله، بعضهم كان يرميه بالحجر، والبعض الآخر كان قريبًا منه متمكنًا من البصاق عليه، بعد قليل لم يعد إبراهيم يرى بعينه، لأن الدم غطاهما؛ واحدة من الأحجار أصابته في رأسه، لكن عقله كان لا يزال يعمل بشكل جيد، كان هادئًا رغم الألم، كان يعرف أن كل ذلك سيحدث، لقد أحدث صدمة هائلة عندهم، وكان لا بد أن يكون موقفهم بهذه القوة...

* * * *

وصل الموكب إلى الساحة العامة مقابل المعبد، وجد إبراهيم

نفسه مقيدًا أمام جمهور كبير جدًا. كان كل من فيه تقريبًا يصرخ مطالبًا بقتله، وكان يتلقى بعض الحجارة والركلات بين حين وآخر...

وكان عدد الناس يزيد أكثر كلما تقدم الوقت، وكان الصياح يزداد، والمطالبات بحرقه أو قتله ترتفع.

أمام كل هؤلاء، كان يقف إبراهيم مقيدًا، لكنه لم يشعر بأنه وحده. كان كل هؤلاء يؤمنون بآلهة مزيفة، وكان هو وحده يؤمن بإله حقيقي، كان كل هؤلاء يرون العالم بعيون الأجداد، عيون الموتى، وهو وحده كان يبصر العالم بعين العقل...

لأنه منفردًا استطاع أن يحدث فيهم كل هذا الهياج فقد أحس إبراهيم أنه أقوى منهم جميعًا...

رغم قيوده، شعر أنهم هم المقيدون، مقيدون بتقليدهم للآباء والأجداد، أما هو فهو حر، تمكن من الإفلات من سلطة الأجداد وقيودهم وأوثانهم، ووصل إلى العقل...

شعر أنه أكثر قوة ... وأكثر تحررًا منهم...

أحس أنه يكاد يرى القيود والأغلال في أيديهم... أحس أن الأجداد من قبورهم، هم الذين يصرخون، وليس هؤلاء الناس...

* * * *

المحكمة: من يحاكِم مَن...؟

فجأة عم السكون، وسكتت الجماهير، التفت إبراهيم، فرأى الموكب الملكي من بعيد، إن الأمر خطير إلى هذا الحد إذن

مما جعل الملك يأتي وهو الذي نادرًا ما يقترب من الناس، شعر إبراهيم أن الملك سيحاكمه أمام الناس جميعًا، وشعر برغبة كبيرة أن يجعل من تلك المحاكمة محاكمة للأجداد وللخرافات وللكهنة بدلًا من أن تكون محاكمة له، قرر إبراهيم أنه يمتلك ما يكفي من العقل ليجعل ذلك علنيًا وأمام كل الناس.

أسرع رجال الدين ينحنون للملك ويقبلون يديه على عادتهم، بينما تدافع أفراد الحاشية يفرشون السجاد وينصبون كرسيًا للملك ومظلة تحميه من الشمس التي كانت على وشك الغروب...

كان الملك يصطحب معه ولي العهد، طفلًا صغيرًا لم يتجاوز عمره أربع سنوات، نظر إليه إبراهيم فوجده بريئًا، وفكر أنهم سيفسدونه لاحقًا ويجعلونه مثل أبيه...

كانت هذه هي أول مرة يرى إبراهيم فيها الملك عن قرب، لكنه لم يكن ضخمًا جدًا كتماثيله الموجودة في كل مكان، كان متوسط الحجم وقدّر إبراهيم أنه أقصر من والده، كما أن جسمه لم يكن قويًا متماسكًا كما يظهر في اللوحات والتماثيل، بل إن ظهره كانت فيه حدبة صغيرة، حرص النحاتون على إخفائها، لاحظ إبراهيم أيضًا أن ذبابة صغيرة كانت حريصة على إزعاجه، لم تكن خائفة منه، وأنه كان يبعدها بيديه وهو شبه عاجز أمامها...



كان إبراهيم يعرف تمامًا أن الملك قد قتل ألوفًا من قبل، وأنه لن يتردد لحظة في قتله هو أيضًا...

كان الكهنة يشرحون للملك ما حدث، فكانت ألوانه تتغير، ثم

دخل معهم إلى المعبد، ليرى ما حدث...

خرج الملك والغضب بادٍ على وجهه، صرخ بالحراس مشيرًا إلى إبراهيم: «اجلبوا هذا الشقي».

قال الملك لإبراهيم بصوت عالٍ سمعه كل الناس: «اسمع أيها التافه يا من يسمونك إبراهيم، إنني لا أهتم لك ولا لاسمك ولا لأبيك، لكن قبل أن آمر بقتلك أريد أن أسألك: «هل أنت فعلت هذا؟».

قال إبراهيم بصوت عالٍ ليسمع الجميع أيضًا، وهو يتكلّف البراءة: «فعلت ماذا يا جلالة الملك؟».

رد عليه الملك بشدة: «لا تمثل البراءة أيها الماكر الصغير، لقد عُـرف عنك استهزاؤك بالآلهة وسخريتك منها ولا بد أنك أنت من فعل هذا بها».

«فعلت بالآلهة ماذا يا جلالة الملك؟» استمر إبراهيم بنغمة البراءة.

«ألا تعرف ما حدث بالآلهة يا ولد يا مكار» قال الملك وصبره يكاد ينفذ.

«ماذا حدث للآلهة يا جلالة الملك؟ هل حدث لها مكروه؟» قال إبراهيم وهو يتكلف الاهتمام والقلق.

«نعم...» قال الملك مجاريًا إبراهيم. «... لقد حدث لها مكروه كبير، إن كنت لا تعرف...» ثم تغيرت ملامح وجهه وهو يقول: «لقد تحطمت...!».

«ماذا؟» صرخ إبراهيم وهو يمثل الفزع.

«ماذا تقول يا جلالة الملك؟»... «آه غفرانك أيتها الآلهة العظيمة، اغفري لملكنا المفدى ما يقول، لا بد أنه فهم الأمر خطأ، لا بد أنه لا يقصد ان يقول إنك تحطمت»... وقال بصوت منخفض: لو كان لكِ وجود أصلًا!

قال الملك وهو يتكلم من بين أسنانه: «أقول لك إنها تحطمت»...

أما إبراهيم فقد كان يمثل أنه يبتهل إلى الآلهة «اغفري له يا آلهة، اغفري له...».

صرخ الملك: «أقول لك: إنها تحطمت أيها الشقي...».

سكت إبراهيم قليلًا وهو يتظاهر أنه يريد أن يستوعب: «كيف تقول ذلك أيها الملك، لقد سمعت عنك أنك رجل تقي، وأنك تحب الآلهة، وأنها تحبك ايضًا، فكيف تقول إن الآلهة تحطمت؟ كيف يُصَدَّقُ ذلك؟».

«لقد تحطمت!» صرخ الملك: «أقسم بالآلهة إن الآلهة تحطمت!».

«ماذا؟ تحطمت الآلهة؟ أحقًا ما يقول الملك أيها الكهنة المحترمون؟» التفت إبراهيم وهو يسأل الكهنة الذين هزوا رؤوسهم وهم يرمقون إبراهيم بنظرات حقد وكراهية.

«كيف حصل هذا؟...كيف تتحطم الآلهة ولا يتحطم العالم؟»، أخذ إبراهيم ينظر إلى السماء ويتظاهر أنه يبحث عن الشمس :«ها هي الشمس على وشك الغروب، وهناك النجوم من بعيد، والهواء لا يزال هناك هواء، وها أنا أتـنفسه أمامكم . كيف تتحطم الآلهة جميعًا ولا نموت نحن؟! أو لا تحدث الزلازل

والفيضانات والبراكين فورًا؟!» قال ذلك إبراهيم وهو يتظاهر أنه محتار جدًا، ثم وجه نظراته للكهنة وسألهم بصوت عال حتى سمعه الناس: «ألم تقولوا لنا إن الآلهة هي التي تسير شؤون العالم؟ هي التي تسيطر على الشمس وعلى الزلازل وعلى النهر حتى لا يفيض؟ كيف إذن تتحطم ولا يحدث أي شيء على الإطلاق؟!».

كان إبراهيم قد قلب الطاولة عليهم، تحول من قفص الاتهام إلى مكان المُدّعي العام؛ إنه لا يحاكم الكهنة أو الملك أو الآلهة فحسب، إنه يحاكم الأجداد أيضًا، شعر أنهم أمامه الآن، وأنه يحاسبهم ويستجوبهم وسرعان ما سيوجه الاتهام إليهم، لا بالتهمة التي يوجهها له الكهنة والملك - تحطيم الآلهة - ولكن بتهمة قتل العقل، ومنعه من أن يكون العين الثالثة التي تبصر بها الحقيقة...

أحس الكهنة بالارتباك نتيجة سؤال إبراهيم، قال واحد منهم وهو يريد أن يغلق الأمر برمته: «نعم، الآلهة العظيمة هي المسؤولة عن كل ذلك، ولكن العالم لم يتحطم لأن الإله الكبير (آن)، كبير الآلهة ووالدها، تدبر الأمر، وسيطر عليه قبل أن ينهار كل شيء...».

«آه، شكرًا للإله العظيم آن» قال إبراهيم متظاهرًا بالخشوع، «ماذا كنا سنقول لولاه»... ثم أكمل: «لكن هل يعني هذا أنه لم يتحطم؟».

رد الملك بحدة: «هل لا تزال تتظاهر أنك لا تعرف شيئًا؟ نعم! الإله آن وجدوه لم يتحطم!».

قال إبراهيم: «ولماذا لم يتحطم يا ترى؟ هل كان وحده خارج

المعبد؟ هل كان معكم في الاحتفال؟ أم لعله كان في مهمة عاجلة في السماء؟».

«لم يتحطم الإله (آن) لأنك لم تضربه بالفأس يا إبراهيم كما فعلت مع الآلهة الأخرى» قال الملك وهو ينظر إلى إبراهيم نظرة معناها «اعترف أفضل لك».

«أنا؟... أنا أضرب الآلهة يا جلالة الملك، وأحطمها؟... سامحتك الآلهة يا جلالة الملك، كيف لي أنا الفتى الصغير أن أحطم تلك الآلهة التي بنت العالم وصارعت الوحوش في العالم السفلي وتغلبت عليها؟ كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟!».

«بالفأس!» رد الملك بحدة: «يمكنك ذلك بالفأس» قالها بصوتٍ عالٍ.

«أي الآلهة هذه التي تتحطم بفأس يا جلالة الملك، أو أي فأس هذا هو الذي يحطم الآلهة، لا بد أنه من نوع ممتاز» قال إبراهيم وقد بدأ يشعر أنه بدأ يستدرجهم إلى الفخ...

«إنه فأس عادي يا إبراهيم، وأنت تعرف ذلك» صرخ كبير الكهنة والغضب يخرج شرارات من عينيه.

قال الملك: «بل إنك أنت الذي علقته في عنق الإله (آن)، ولسبب ما أنت تعرفه جيدًا، لم تحطمه به».

جر إبراهيم نفسًا عميقًا، ثم قال بمكر بتسلسل منطقي للأحداث: «دعوني أرتب المشهد الآن كما فهمته. الآلهة كلها تحطمت باستثناء كبيرها الإله (آن) الذي وجدتموه في مكانه في المعبد، لكنكم جئتم تتهمونني أنا، أنا الذي كنت في البيت...

ثم الآن الآلهة تحطمت بفعل فأس، والفأس لم تعثروا عليه

عندي في البيت، لكنكم وجدتموه عند الإله (آن) مع ذلك فإنكم تتهمونني أنا الفتى الصغير، بأني حطمت الآلهة، رغم أني لست أنا الذي وجدتموه واقفًا في المعبد وبيده الفأس»...

قال الملك مندهشًا: «ماذا تقصد يا ولد؟». «قصدي واضح، لا بد أن الآلهة العظيمة قد أغضبت كبير الآلهة لسبب ما أو أنه ضجر منها بلا سبب، فانهال عليها ضربًا وحطمها كما رأيتم... لا أرى أي دخل لي بالموضوع».

«... أو لعله رأى أنه لا داعي لكل هذا العدد من الآلهة، ما دام قادرًا وحده على السيطرة على الأمور كما تقولون» أضاف هذا وهو يستخدم ما قالوه في إحكام الفخ حولهم.

قال كبير الكهنة لإبراهيم: «إنك تتهم كبير الآلهة، الإله العظيم المقدس (آن)، بتهمة شائنة وخطيرة»، ثم التفت إلى الملك: «أيها الملك العظيم، أطلب منك أن تحكم عليه الآن وفورًا وقبل أن يتمادى هذا الشقي أكثر في إهانة الآلهة...»

فكر إبراهيم أنهم فهموا خطته الآن، وأنهم يريدون إسكاته قبل أن يحرجهم أمام كل الناس، تنبّه إلى أن الكهنة بدأوا يتشاورون فيما بينهم ومن ثم يهمسون في أذن الملك، سمع بين الهمس كلمة (الحرق) فعلم أنهم قرروا قتله حرقًا أمام الناس...

قال إبراهيم: «قبل أن تحكموا عليّ... بيني وبينكم شيء واحد فقط».

سأله الملك: «وما هو هذا الشيء؟».

قال إبراهيم كلمة واحدة فقط لكن قالها بصوتٍ عالٍ وواضح وقوي، قال: «أسألوه...» وسكت.

عم الصمت المكان. قال الملك: «من تقصد يا ولد؟».

أجاب إبراهيم بصوت يزداد ثقة ووضوحًا: «اسألوا كبير الآلهة (آن)، إذا لم يكن هو الذي فعل ذلك، فلقد كان موجودًا في المعبد على الأقل، ولا بد أن يكون قد رآني أحطمها إذا كنت أنا الذي فعلت ذلك».

«اسألوه...» كرر إبراهيم: «لماذا لا تسألوه؟» ظل إبراهيم يكرر... «إنه الذي تتوجهون له بالصلوات والدعوات، وهو الذي يسير كل شؤونكم، فلماذا لا تسألونه؟».

أخذ إبراهيم يدور برأسه بين رجال الدين - المرتبكين - والملك وكل الناس الذين تجمهروا حوله بالمئات...

«اسألوه...» أخذ يصيح بصوت عال: «اسألوه...» ظل يكرر.

وعم السكون، شعر أنه الآن فقط ضرب الفأس على قاعدة التمثال، الآن أصابه فعلًا، لم يكن يريد منهم أن يسألوه حقًا، بل كان يريد أن يسألوا أنفسهم: هل يمكن حقًا أن يسألوا هذا الوثن؟ كان يريد منهم أن يسألوا فحسب. كان يريد منهم أن يستعملوا أدوات السؤال: كيف؟ لماذا؟ متى؟

سيكون ذلك كفيلًا بهدم الأوثان، سيكون ذلك كافيًا لطرد الخرافات من رؤوسهم...

«اسألوه» كانت الكلمة تتردد في الأنحاء كما ترددت كلمة (واحد... واحد) في أرجاء المعبد.

«اسألوه» كان إبراهيم يصرخ الآن، لم يعد صوته عاليًا

فقد صار أشبه بالصراخ، كان يريد بصياحه أن يوقظهم، أن

يوقظ مارد العقل الموجود في رؤوسهم...

وعدا هذا الصوت، كان الصمت مخيمًا، لقد بُهت الملك، وفتح فمه مدهوشًا، وسكت الكهنة وقد بدت عليهم الحيرة وأخذوا يتبادلون النظرات فيما بينهم.

كذلك الناس، اختفى ذلك الهياج الذي كان قبل قليل، لم تعد هناك تلك الصرخات المطالبة بقتله، كان هناك الصمت...

قال إبراهيم في نفسه: «لقد كانوا يسألون أنفسهم»...

وفجأة، شق الصمت صوت ضحكة عالية، بل قهقهة ساخرة، التفت الجميع ليعرفوا مصدر تلك الضحكة، كان الغضب باديًا على وجوه الكهنة وهم يبحثون عن مصدر تلك الضحكة، لم يكن ينقصهم هذا الآن...

ظلت الضحكة عالية، لكنها وضحت أكثر وأكثر وكشفت عن صوت طفولي جدًا...

كان مصدر الضحك هو الطفل الصغير، ولي العهد، ابن الملك، وقد كان يتمرغ على الأرض من شدة الضحك.

بدا الإحراج على وجوه رجال الدين، لو كان الطفل الذي يضحك من أبناء الناس العاديين لربما كان عوقب بالضرب أو ربما كان حُوكِمَ مع إبراهيم...

لكنه ابن الملك وولي عهده، إنه الملك القادم، لا أحد يجرؤ على إسكاته وتقريعه أو نهره.

التفت الملك إلى ابنه الصغير المدلل وعلامات الانزعاج على وجهه، وقال بصوت خفيض حاول ألا يسمعه فيه أحد: «ماذا

تفعل ايها الصغير؟ لقد فضحتني! ما كان يجب أن احضرك معي، لِمَ كل هذا الضحك؟». استمر ولي العهد بالتمرغ على الأرض من شدة الضحك وهو يكاد يختنق وقد احمر وجهه، وقال بصعوبة من بين قهقهاته: «لكن ما هذه السخافة يا والدي؟ كيف يقول لكم أن تسألوا هذا التمثال؟ كيف يمكن لهذا التمثال أن يجيب أو أن يسمع أي شيء، إنه لا يفعل أي شيء».

ثم قطع كلامه وهو ينفجر ضاحكًا مرة أخرى، وقال: «إنه لا يفعل أي شيء حتى عندما يتبول عليه أخي الصغير كل يوم...»

«...إنه مجرد حجر» قالها وهو يتمرغ على الأرض.

وبُهت الملك. بُهت رجال الدين. بُهت الناس. خُيّل لإبراهيم أنه سمع صوتًا عاليًا تكوّن من آلاف الشهقات الخافتة...

كان الأمير الصغير لا يزال يقهقه، وبدأ إبراهيم يسمع أصواتًا مختلفة، كان هناك بعض الهمهمات التي لم يفهمها إبراهيم، وكان رجال الدين يتناقشون فيما بينهم بحدة عما يجب عمله، وسمع إبراهيم أيضًا من بين الناس بعض التعليقات المتفرقة: «إنه على حق...»... «كيف يمكن لتمثال أن يجيب»... «هل قال: إن أخاه يتبول على الإله كل يوم؟»...

أدرك إبراهيم أن فأسه قد أحدثت صدعًا كبيرًا في ذلك الحاجز الذي يمنع أهل مدينته من العقل، أدرك أن فأسه أصابت الأجداد في الصميم...

لكن رجال الدين أسرعوا للسيطرة على الموقف وقد أدركوا ما أدركه إبراهيم، همس واحد منهم في أذن الملك وهو يشير إلى ولي العهد، فالتفت الملك إلى واحد من الخدم، فأسرع يحمل ولي العهد الذي كان لا يزال يطلق الضحكات.

وتقدم واحد من رجال الدين ليقول للناس بصوت عال: «أيها الناس، يا أهالي (أور) العظيمة الكرام، إن هذا الفتى الذي يقال له إبراهيم، سبق له وتمادى في إهانة الآلهة والسخرية منها، بل إنه قد حاول إفساد بهجة يوم العيد عندكم، كما حاول أن يوقع بين الآلهة ويتهم الإله العظيم (آن) كبير الآلهة ووالدها بتهم يخجل لساني من ذكرها...».

ثم رفع صوته أكثر وهو يقول: «...ولدينا معلومات مؤكدة، أن هذا الفتى مرتبط بأعداء ممّن وراء النهر، وأنه يحاول أن يروج لآلهة بلدان مجاورة - معادية لآلهتنا العظيمة بل إن هناك معلومات أخرى تؤكد أن هناك رجال غرباء عن مدينتنا ساعدوه اليوم في عمله الأثيم...» ثم سكت قليلًا وأكمل... «وقد سمعهم بعض الإخوة وهم يتحدثون، وكانت لديهم لهجة بلاد الأعداء...» قال الجملة الأخيرة بصوت تعمد أن يكون عاليًا جدًا ليؤثر في الناس ويهيجها...

وتعالت صيحات الغضب من الناس، تمكن الكاهن الخبيث أن ينسيهم ما قاله ولي العهد، تمكن بأكاذيبه عن اشتراك الأعداء مع إبراهيم في تحطيم الآلهة، أن يعود فيحشدهم ضده وينسيهم أنهم كانوا على وشك اكتشاف سخافة الآلهة...

والتفت الكاهن الخبيث نحو الجماهير مرة أخرى وهو يصرخ: «فما جزاء من يتعاون مع الأعداء ضد أور العظيمة وآلهتها المقدسة؟».

تعالت الأصوات: القتل. القتل. الحرق. الشنق. الحرق. الصلب. القتل. الحرق...

ثم ساد صوت واحد... يقول... احرقوه... احرقوه... احرقوه.

* * * *

طوال الليل ظل الناس يجمعون الحطب من أجل حرقه.

وطوال الليل ظل إبراهيم يراقبهم...

كانوا قد حبسوه في غرفة صغيرة مطلة على الساحة الرئيسية في المدينة، والقيود لا تزال في يديه...

وكان إبراهيم يراقبهم وهم يجمعون الحطب الذي سيحرق به.

كان يتأمل وجودهم، بعضهم كان يبدو أقل حماسًا من الآخرين، فكر إبراهيم أن هؤلاء ربما كانوا يفكرون بما قاله وبالتعليق الذي علقه الطفل ولي العهد، لاحظ إبراهيم أن بعضهم لم يكن يساعد في حمل الحطب، بل يتفرج فقط، ربما لم يكونوا مقتنعين بحرقه، ربما كانوا يفكرون...

لاحظ أيضًا أن بعضهم كان يتناقش بحدة مع الآخرين، لم يكن يستطيع سماع ما يقولون، لكن لعلهم كانوا يناقشون ما حدث...

فكر إبراهيم أن ما حدث ربما هزهم جدًا وجعل الفأس يحفر في أعماقهم بعيدًا أكثر مما يدركون...

فكر إبراهيم في تلك الجموع، صحيح أن صوت «احرقوه» كان عاليًا جدًا، لكنه كان واثقًا أن هناك من سكت..

هناك من التقط البذرة.

* * * *

وفي تلك الليلة صلى إبراهيم لإلهه، إله العالم كله، إله الكون كله، إلهنا نحن، الإله الحق الواحد...

غمره الدفء رغم برد الليلة القارس، غمره النور رغم ظلمة

الغرفة التي حبسوه فيها...

ناجاه، وحاكاه، وقال له ما يعرف أنه يعرفه جيدًا...

لكنه أحس بقوة أكثر، وبراحة أكثر، وأحس بحرية أكبر...

* * * *

وعندما أضرموا النار في كوم الحطب الهائل، وارتفعت ألسنتها عالية في السماء، لم يشعر إبراهيم بالخوف، بل ظل يرقبها بعين مفتوحة، دون أن يرمش لحظة واحدة...

فكر أن النار مخلوق آخر من مخلوقات هذا الإله الحق الواحد، وأنها ستطيعه وتطيع قوانينه وأوامره...

وأن هذا الإله لو أراد أن ينقذه، لو أراد أن ينجيه؛ لأطاعته النار... دونما تردد.

وعندما رأى إبراهيم الحرس قادمين لاصطحابه إلى حيث سيُحرق أمام الملك وأمام الناس، كان إبراهيم واثقًا تمامًا، متيقنًا تمامًا، أن الإله الحق الإله الواحد، لن يتخلى عنه..

* * * *

الجواب عندكم

فماذا تقولون أنتم؟...

هل تخلى الإله الحق عن إبراهيم وتركه يحترق؟... أم أنه أنقذه بطريقة ما، ولو بقانون آخر، وجعله ينجو من النار، وجعل النار لا تحرقه؟

ولكن ما هذا السؤال؟... لو كان إبراهيم قد احترق، لما كنتم تقرأون الآن هذه القصة، ولما كنت كتبتها، بل لما كنت أنا ولا كنتم أنتم...

فإبراهيم هو أبونا الأكبر، ومجرد وجودنا الآن دليل أن الإله الحق الإله الواحد قد أنقذه في الوقت المناسب...

أليس كذلك؟

* * * *





أبي اسمه إبراهيم

رواية لا تلتزم بعمر أو سن معين لقرائتها ، كما أنها لا تلتزم بقالب روائي محدد ، فأهم ما تصبو إليه هو التحرر من القوالب التقليدية الجاهزة التي كان سيدنا «إبراهيم» ثورة دائمة عليها .

الزمان يتغير في هذه الرواية ، وكذلك المكان ، فهي مرة تتحدث عن ماض سحيق ، ومرة تتحدث عن حاضر معاصر، وتشير ضمناً إلى مستقبل يجب أن يكون.

مرة تتحدث عن (أور) التاريخية، ومرة عن أي عاصمة حديثة من عواصم العالم.

هناك مكان واحد تحاول هذه الرواية أن تكون موجودة فيه دوما لتحفيزه وتفعيله.

والمكان هو : رأس القارئ ، بغض النظر عن عمره .





